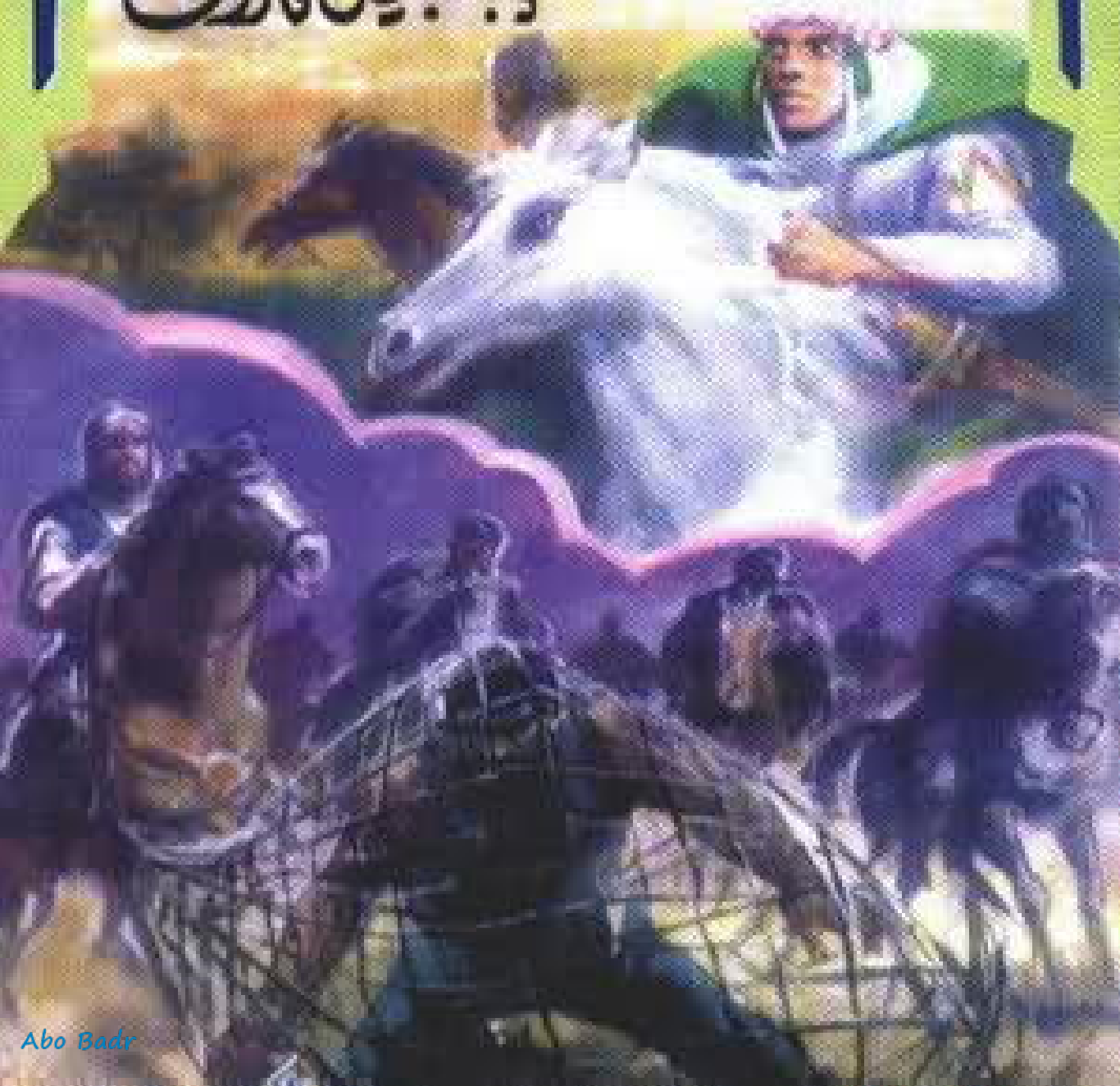


فارس الأندلس

الطريق إلى قرطبة

د. نبيل فاروق



من بين أوراق التاريخ جاء ..

من قلب الحضارة والأمل ظهر ..

من أجل العدالة والحق كان ..

رمز الماضي والحاضر والمستقبل ..

الفارس ..

فارس الأندلس ..

د. نبيل فاروق

١- خيانة ..

تطايرت أوراق الأشجار الجافة ، مع رياح الخريف
الهائلة ، فوق السهول الممتدة إلى مدى البصر ، فى
مملكة (غرناطة) ، آخر حصن للعرب فى (الأندلس) ،
وبرزت الشمس فى الأفق ، من خلف تلال بلدة
(شنتفى) ، بالقرب من الحدود القشتالية ، لتلقى
أشعتها الذهبية الدافئة على جواد أسود بلون الليل ،
ينطلق كالعاصفة ، لينهب الأرض نهبا ، فى اتجاه
البلدة ، وعلى متنه فارس زنجى ، متين البنية ،
صارم القسمات ، مفتول العضلات ، قوى كالزمن ،
صامت كالموت ، بدا ممشوق القوام ، على ظهر
جواده ، على الرغم من سرعته ، حتى بلغ البلدة ،
التى دبّت الحركة فى سوقها الكبير ، مع مشرق
الشمس ..

وما إن دخل ذلك الفارس إلى السوق ، حتى التفتت
إليه عيون الجميع ، وحملت الشفاه ابتسامة مرحة ،

فى حين ارتفعت الأيدى تلقى إليه التحية فى صمت ،
على نحو يشف عن كونه شخصية معروفة
ومحبوبة ، على الرغم من كل الصمت والغموض ،
الذين يحيطان به طوال الوقت ..

أما الفارس ، فقد أبطأ سرعة جواده ، وراح يسير
به الهوينى فى السوق ، ليجيب تحية الجميع بإشارة
صامتة ، وابسامة رصينة ، قبل أن يغيب خلف
أسوار أحد الأحياء السكنية ، فالتفت أحد رواد السوق
إلى رفيقه ، قائلاً :

.. لقد عاد أخيراً .. إتنا لم نره منذ ما يقرب من
سنة أشهر .

أشار إليه الثانى بيده ، وهو يقول :

- إنه أت من الشمال .. لا ريب فى أنه يحمل إلى
الملك معلومات جديدة عن القشتاليين .

ارتفع حاجبا الأول ، وهو يهتف :

- هل تعتقد حقاً أنه يعمل لحساب مولانا (ابن

الأحمر) ؟!

هز الثانى كتفيه ، قائلاً :

- أديك تفسير آخر ؟!

تطلّع الأول إلى حيث اختفى الفارس ، قبل أن يتمتم
فى خفوت واقتضاب .
- كلا .

لم يتبادلا بعدها حرفاً واحداً ، وتشاغلا بعدها بالبيع
والشراء ، وكأنهما يرغبان فى إغلاق هذا الحوار
نهائياً ..

أما الفارس ، فقد راح يقطع الطرقات بجواده فى
صمت ، حتى بلغ نزلاً صغيراً ، حمل بابه شعار أحد
أمرء (الأندلس) القدامى ، فأوقف جواده عنده ،
وهبط عن متنه ، ودلف إلى النزل بقامته الفارهة
الممشوقة ، وعضلات صدره القوية البارزة ..

وما إن وقع بصر (حالم) صاحب النزل ، على
ذلك الفارس الزنجى ، حتى ارتسمت على شفتيه
ابتسامة كبيرة ، وهو يتجه إليه ، قائلاً :

- أهلاً يا سيّد (فهد) .. مرحباً بك .

أجاب (فهد) تحيته بإشارة من يده ، دون أن
ينبس ببنت شفة ، فأسرع (حالم) يعدّ له مشروباً
ساخنًا ، وهو يسأله فى اهتمام :

- كيف كانت رحلتك إلى (قرطبة) ؟!

أجاب (فهد) باقتضاب ، وبصوت خشن جاف ،
بدا وكأنه يأتي من أعماق بئر سحيقة :
- جيدة .

كان (حالم) يدرك أن (فهد) لا يميل إلى الكلام ،
وأنه لولا ما يصدر عنه ، بين الحين والآخر ، من
كلمات مقتضبة موجزة ، لبدا وكأنه أبكم ، لا يمكنه
التحدث بحرف واحد ، وعلى الرغم من هذا ، فقد عاد
يسأله :

- هل علمت ما ينتويه القشتاليون ، في الأيام
القادمة ؟!

رمقه (فهد) بنظرة صارمة ، قبل أن يرتشف
مشروبه الساخن في هدوء ، دون أن يجيب السؤال ،
فابتسم (حالم) ، مغمغماً :

- اغفر لي فضولي يا سيّد (فهد) .

أشار (فهد) بيده إشارة صارمة ، وهو يواصل
ارتشاف مشروبه الساخن ، فاتجه (حالم) إلى حجرة
صغيرة ملحقة بالمكان ، وهو يقول :

- على أية حال ، لقد وصلت رسالة من الشيخ .

لم يكذ (فهد) يسمع العبارة ، حتى هب من مقعده ،

وأزاح ما تبقى من مشروبه الساخن ، وهو يندفع نحو
(حالم) ، الذى خرج من تلك الحجرة الصغيرة ،
ممسكاً رقعة جلدية مطوية ، اختطفها (فهد) من يده
فى لهفة ، وفردها بسرعة ، والتهم كلماتها القليلة
ببصره ، قبل أن يدسها فى حزامه ، ويندفع خارج
النزل ، و (حالم) يهتف به :

- إلى أين ؟! إنك لم تنته من مشروبك بعد!

ولكن (فهد) لم يسمعه ..

لقد وثب على متن جواده ، وانطلق به على
الفور ، متجاوزاً الأحياء السكنية ؛ ليعبر السوق
كالصاروخ ، على نحو أثار دهشة الجميع وذعرهم ،
فهتف أحدهم :

- ماذا أصابه ؟! لقد اعتدناه هادئاً صارماً رصيناً .

أجابه آخر ، وهو يتابع (فهد) فى توتر بالغ :

- لا ريب فى أنه يحمل أخباراً عاجلة لا بد أن تصل

إلى الملك بأقصى سرعة .

- سألته الأول فى قلق :

- أخبار ؟! أية أخبار ؟!

أشار الثانى بيده ، قائلاً :

- أخبار القشتاليين .

وكأنما خرج الجواب من بين شفثيه ؛ ليسرى فى
السوق كله ، سريان النار فى الهشيم ..
فلم يكد ينهى عبارته ، حتى هبط على السوق كله
صمت عجيب ، اشترك فيه الجميع ، دون اتفاق
أو رأى مسبق ..

وبحركة تلقائية ، استدارت عيونهم جميعاً إلى
الشمال ، وكأنهم يخترقون الزمان والمكان بأبصارهم ؛
ليصلوا إلى الحدود ..

حدود الخطر ، بينهم وبين القشتاليين ..

أما (حالم) ، صاحب النزل ، فقد توقف فى مكانه
صامتاً ، بعد ذهاب (فهد) ، وقد تعلقت عيناه بباب
النزل ، حتى سمع صوتاً من خلفه ، يقول بالإسبانية :
- أحسنت اللعبة أيها العربى .

ازررد (حالم) لعابه فى صعوبة ، واستدار إلى
صاحب الصوت ، مغمغماً فى توتر :
- حقاً ؟!

برز المتحدث من ركن خفى ، فى تلك الحجرة
الصغيرة ، وهو يقول بابتسامة صفراء ، وعينين
تتألقان ظفراً :

- بالتأكيد .

كان يرتدى ثياباً عربية أندلسية أصيلة ، إلا أن كل شيء فيه ، بخلاف تلك الثياب ، لم يكن أندلسياً أبداً ..
لقد كان أحمر الوجه ، أزرق العينين ، أشقر الشعر ، يبدو أشبه بالفرسان الجرمانيين (*) ، منه إلى فرسان (قشتالة) و (ليون) ، الذين يتحدث بلسانهم ، وهو يقول في ظفر :

- كل شيء كان دقيقاً ، حتى إنه لم يكن من الممكن أبداً أن يكشف خدعتنا .. لقد استخدمنا نفس الرقع الجلدية ، حتى يخط عليها الشيخ رسائله ، ونجح أحد رجالنا في تقليد خطه بدقة مذهشة ، على نحو أقنع ذلك الزنجرى ، بأن الشيخ يرسله فى مهمة عاجلة إلى (مالقة) ، بدلاً من عودته إلى (غرناطة) ، ولم يكن لدينا شك فى أنه سينطلق لتنفيذ مهمته ، دون إضاعة لحظة واحدة ، مما يعنى أن ما لديه من

(*) اسم يطلق على مجموعة من الأجناس الأوروبية، تغلب فى شعوب (السويد) . و (النرويج) . و (الدانمارك) ، و (أيسلندا) . و (ألمانيا) . و (النمسا) . و (سويسرا) . و شمال (إيطاليا) . و (هولندا) . و (بلجيكا) .

معلومات ، عن الجيش القشتالي وتحركاته ، لن
تصل إلى (غرناطة) فى الموعد المناسب ، وهذا
يعنى أيضاً أن مفاجأتنا لهؤلاء العرب ستكون كاملة ،
و.....

وتألفت عيناه بجذل وحشى ، قبل أن يضيف :
- وعنيفة .

قالها ، ثم انطلق يقهقه فى ظفر واستمتاع ،
و (حالم) يتطلع إليه فى صمت ، محاولاً أن يرسم
على شفتيه ابتسامة ، بدت على الرغم منه باهتة
مرتجفة ، قبل أن ينتزع نفسه من صمته وتوتره ،
ويتساعل فى خفوت :

- أهذا كل ما تنوونه ، بشأن (فهد) ؟!

صمت الجرمانى بضع لحظات ، قبل أن يبتسم فى
مكر ، قائلاً :

- ليس بالضبط .

ثم صب لنفسه كأساً من الخمر ، وهو يتابع :

- ذلك الزنجى مقاتل عربى شرس ، وفى كل مرة
اصطدم فيها برجالنا ، كانت خسارتنا فادحة ، وليس
من مصلحتنا أن نسمح له بالاصطدام بهم مرة أخرى ،

وخاصة في المرحلة القادمة ، التي نستعد فيها للغزوة الكبرى .

امتقع وجه (حالم) ، وهو يغمغم بصوت مرتجف :
- ولكن (فهد) ليس خصمًا هينًا .. إنك ستحتاج
إلى جيش كامل لقتله .
هتف الجرماني من دهشة :
- قتله ؟!

ثم انفجر ضاحكًا مرة أخرى ، قبل أن يستطرد في
سخرية :

- إن آخر ما نسعى إليه هو قتله يا رجل .
سأله مبهورًا :

- ماذا ستفعلون به إذن ؟!

جرع الجرماني كأسه دفعة واحدة ، قبل أن يقول
بابتسامة ساخرة ، ولهجة صارمة للغاية :
- ليس هذا من شأنك .

احتقن وجه (حالم) ، ودون أن ينبس ببنت شفة
لبضع لحظات ، صب الجرماني خلالها لنفسه كأسًا
أخرى ، ألقاها في جوفه دفعة واحدة ، على نحو جعل
(حالم) ينتزع نفسه من توتره ، ويتساعل في حذر :

- قل لى يا سيد (هيلموت) : إنك لست قشتالياً ،
فلماذا تفعل كل هذا ؟

انتزع الجرمانى صرة من حزامه ، وهو يقول فى
سخرية :

- لنفس السبب ، الذى تفعله من أجله أيها
الأندلسى .

والقى إليه الصرة ، مستطرداً :
- الذهب .

قالها ، وانطلق يقهقه مرة أخرى فى سخرية ..
وفى ظفر ..

★ ★ ★

على الرغم من أن (فهد) لم يكن قد استرد
عافيته كاملة ، بعد رحلته المرهقة ، من (قرطبة)
إلى (شنتفى) ، إلا أن رسالة الشيخ الزائفة جعلته
ينطلق بجواده بأقصى سرعته ، فى طريقه إلى
(مالقة) ، فى محاولة لبلوغها قبل شروق شمس
الغد ، كما طلبت الرسالة ..

لم يكن يدرى طبيعة مهمته بالضبط ، ولكن الرسالة

أكدت ضرورة لقائه هناك بشخص محدد ، حددت
صفاته وسماته ، والاسم الذى سيقدم نفسه به ...
وعلى الرغم من كل ما يشعر به ، من تعب
وإرهاق ، لم يكن من الممكن أبداً أن يضيع (فهد)
لحظة واحدة ، دون أن ينفذ أوامر الشيخ ..
فبالنسبة إليه ، كانت هذه الأوامر أشبه بالقدر ..
لا يمكن رده ..

أو حتى مناقشته ..

مهما كانت الأسباب ...

حتى جواده المرهق نفسه ، لم يبد أى تمرّد أو
اعتراض ، وهو يواصل الانطلاق بأقصى سرعته ،
عبر الحقول والوديان ، وكأنما أدرك بدوره أهمية
وخطورة مهمة راكبه وحتميتها ..

وعلى الرغم من حرارة الجو ووعورة الطريق ، لم
يتوقف الجواد وراكبه لحظة واحدة ، خلال ساعة
كاملة ، من أجل شربة ماء ، أو قليل من الراحة ..

حتى لاح ذلك الركب من الفرسان من بعيد ..
كانوا اثنى عشر فارساً . فى ثياب أندلسية ، تشف
عن الثراء وكريم المحند ، على نحو آثار انتباه (فهد)

واهتمامه ، فخفض من سرعة جواده ، وهو يفحصهم
ببصره فى سرعة وحذر كعادته ..

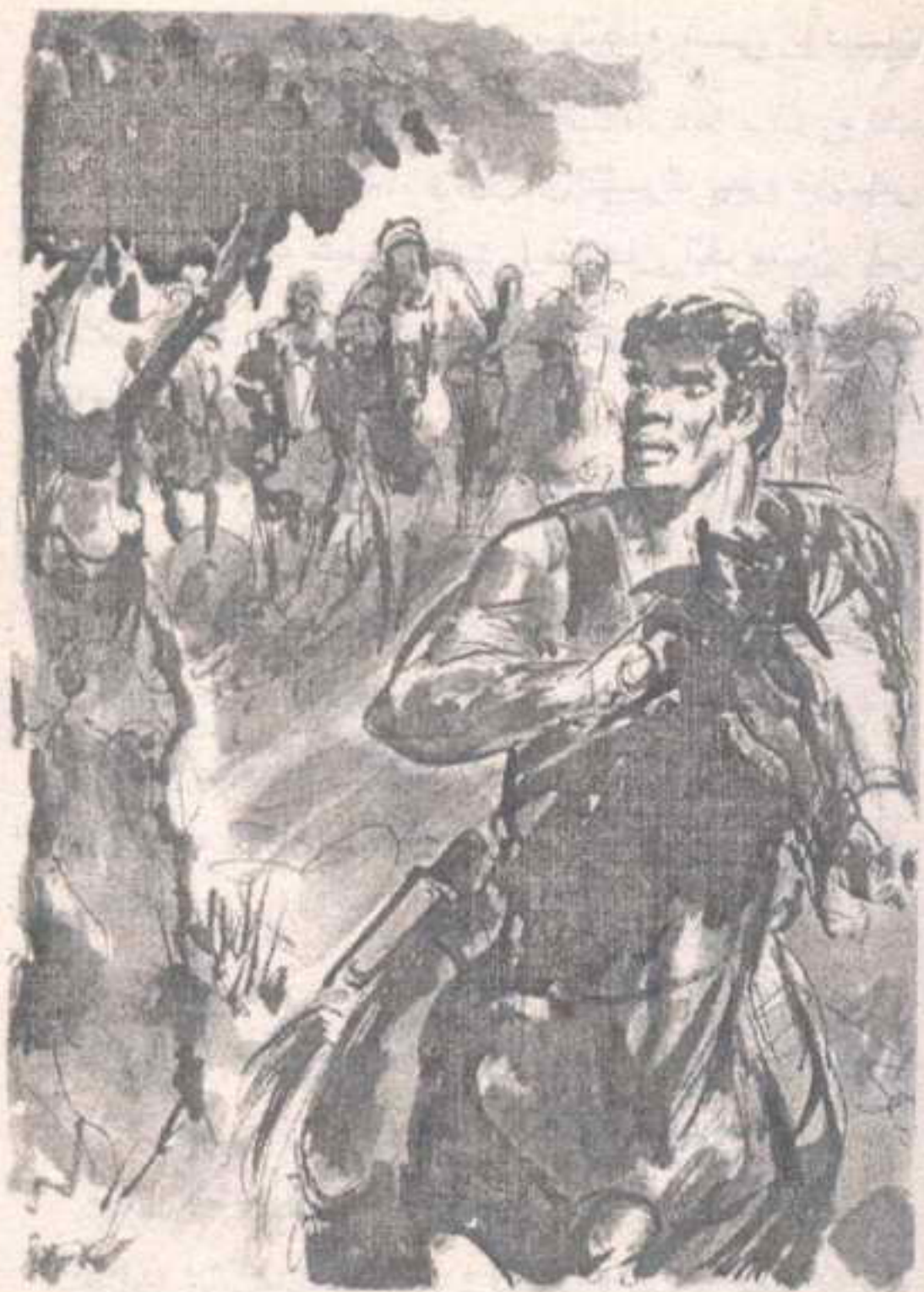
ولكن الفرسان لم يتوقفوا لحظة واحدة ..
لقد انطلقوا نحوه مباشرة ، وكأنهم يستهدفونه
بالذات ..

وبحركة غريزية ، أمسكت يد (فهد) مقبض سيفه ،
وضاقت عيناه فى تحفز ، وهو يوقف جواده ، ويشد
قامته فوقه باعتدال ، وصدره العارى يلتمع تحت
ضوء الشمس ، والركب يقترب منه أكثر ..
وأكثر ..
وأكثر ..

وعندما صار على قيد عشرة أمتار منه ، لوح أحد
الفرسان بيده ، هاتفاً بلغة عربية ، ولهجة أندلسية
سليمة :

- أيها الزنجى .. هل يمكنك أن تدلنا على الطريق
إلى (شنتفى) .

أما باقى الفرسان ، فقد خفضوا سرعة جيادهم ،
وإن لم يحاولوا التوقف ، وراحوا يدورون حول جواد



ولكن الفرسان لم يتوقفوا لحظة واحدة ..
لقد انطلقوا نحوه مباشرة ، وكأنهم يستهدفونه بالذات ..

(فهد) ، وهم يتشاغلون بالتطلع إلى الوديان
الخضراء الممتدة إلى مدى البصر ..

وفى حذر زائد ، ودون أن تترك يده مقبض
سيفه ، راحت عينا (فهد) تتابعان الفرسان فى
توتر ، وهو يجيب الفارس الأول فى حزم ، وبصوت
عميق غليظ :

- إلى الشمال الشرقى .. اتبع الـ ...

قبل أن يتم عبارته ، استل الفرسان الاثنا عشر
سيوفهم فجأة ، وانطلقت من حلوقهم صرخة قتالية ،
تتعارض تماما مع الثياب التى يرتدونها ..
صرخة قشتالية محضة ..

وكرجل واحد ، انقضوا على (فهد) ، من كل
الاتجاهات ..

وهنا ، ارتجت المنطقة كلها بصرخة هادرة ..
صرخة انطلقت من حلق (فهد) ، وهو يمتشق
حسامه من غمده ، وينقض بدوره كالصاعقة ..
كان القشتاليون ، المتنكرون فى هيئة أندلسية ،
يحيطون به من كل جانب ، وسيوفهم تنقض من كل
اتجاه ، إلا أن سيفه راح يدور حوله كالإعصار ،

فيصد سيفاً ، أو يضرب عنقاً ، أو يغوص فى صدر ،
ليمزق قلب أحد القشتاليين ..

وعلا صليل السيوف ..
وتفجرت الدماء فى عنف ..

واتطلقت صرخات (فهد) الصارمة ، وصرخات
القشتاليين المتألّمة ..

ثم فجأة ، تراجع من تبقى منهم ..
تراجعوا فى آن واحد ، على نحو يوحى باتفاق
مسبق ..

وقبل أن يدرك (فهد) لماذا حدث هذا ، وقعت
عيناه على أربعة من القشتاليين ، يندفعون نحوه
بخيولهم ، وقد أمسكوا فيما بينهم شبكة كبيرة ، أشبه
بشباك الصيادين ..

وعلى الفور ، فهم (فهد) الموقف كله ..
وبكل قوته وسرعته ، جذب عنان جواده ، محاولاً
الإفلات من الفخ ..

ولكن القشتاليين الآخرين عادوا ينقضون بسيوفهم .
كان فخاً محكماً بحق ، اضطر المقاتل العربى
الأسود إلى اتخاذ مسار محدود ..

نفس المسار الذي أرادوه بالضبط .

وبمنتهى العنف ، ارتطمت به الشبكة ، بخيوطها
المعدنية الثقيلة ، وانتزعت من على متن جواده ،
لتلقى به أرضاً فى عنف ، وتحيط به فى قوة ، وهو
يقاومها فى استماتة ، محاولاً رفع سيفه لتمزيق
خيوطها المعدنية ..

وفى هذه المرة ، انقضَّ عليه القشتاليون بكل
العنف والشراسة ..

وبهراوات ضخمة ، راحوا ينهالون على جسده ،
وهو يطلق صرخاته الثائرة الغاضبة ، التى رددتها
وديان (غرناطة) كلها ..

وانطلق صهيل الجواد الأسود ، وهو ينقض على
القشتاليين ، وارتفعت قائماته الأماميتان ، لتهويًا
بحافريه القويين على صدر أحدهما ..

ثم استدار إلى الثانى ..

وصرخ القشتالى الثانى ، وهو يستل سيفه :

- اللعنة ! الجواد يدافع عن صاحبه ..

أطلق صرخته ، وهو يضرب بسيفه بكل قوته ..

وفى سرعة مدهشة ، تراجع الجواد كفارس

مقاتل ، ومال برأسه فى رشاقة وبراعة مدهشتين ،
لتفادى ضربة السيف ..

وعلى الرغم من دهشتهم ، انقسم من تبقى من
فريقى القشتاليين إلى فرقتين صغيرتين ..

الأولى واصلت ضرب (فهد) بهراواتها الثقيلة ،
والثانية امتشقت سيوفها ، وانقضت بها على جواده ..

وتراجع الجواد المدرب أكثر وأكثر ، وانطلق
صهيله الثائر مرات ومرات ، وهو يتفادى ضربة
سيف هنا ، وأخرى هناك ..

أما (فهد) ، فقد راح يقاوم ..

ويقاوم ..

ويقاوم ..

ولكن الخيوط المعدنية للشبكة القوية ، كانت تحبط
مقاومته بشدة ..

والهراوات الثقيلة كانت تهوى على رأسه فى
عنف ..

ثم جاءت الضربة ، التى ارتج لها رأسه فى
عنف ..

ومادت به الأرض ، وأظلمت الدنيا أمام عينيه ، و ...

وفقد الوعي ..

وأطلق جواده صهيلًا قويًا آخر ، وضرب الهواء
بقائمتيه مرتين ، قبل أن يدور حول نفسه ، متفاديا
الضربات الأخيرة لسيوف القشتاليين ، ثم ينطلق
مبتعدًا بأقصى سرعته ، وقوائمه تنهب الأرض نهبا ..
ولثوان ، تجمد الموقف كله ، وعيون القشتاليين
تتابع الجواد المبتعد ، قبل أن يلتفت أحدهم إلى (فهد)
في سرعة ، وخدجه بنظرة عصبية ، وكأنما يتوقع أن
يهب من غيبوبته ، وينقض عليهم مرة أخرى ..

وعندما طال صمت (فهد) وسكونه ، وأيقن
الجميع من غيبوبته ، هتف أحدهم في توتر :
- أخيرا .. لقد تصوّرت لحظة أنه سيقتلنا جميعا .
هتف آخر :

- كيف يصنع الأندلسيون أمثاله ؟! إنه يقاتل
كالوحوش !

غمغم ثالث في عصبية ساخطة ، وهو يدير عينيه
في جثث رفاقه :

- لقد فقدنا ستة رجال ، قبل أن نظفر به .
هتف رابع في حدة ، وهو يلوح بسيفه :

- دعونا نقتله ، جزاء ما اقترفت يداه :

اعترض الأول طريقه ، هاتفاً في صرامة :

- ويحك يا رجل .. الفارس (هيلموت) أمر بالقاء القبض عليه حياً ، والملك (فرناتدو) أمرنا بطاعة الفارس (هيلموت) ، باعتباره قائد المهمة .

قال الرابع في عصبية :

- إنكم تقدرون ذلك الجرمانى بأكثر مما يستحق .

أجابه الأول ، وهو يجذب من سرجة بعض الأغلال المعدنية ، ويتجه بها نحو (فهد) :

- إننا نطيع أوامر مليكنا .

تعاون الأربعة على تقييد معصمى (فهد) وكاحليه بالأغلال ، دون أن يتبادلوا كلمة واحدة ، وما إن نهضوا ، بعد انتهائهم من هذا ، حتى بدا لهم فارس يقترب من بعيد ، أمكنهم تمييزه وتعرفه على الفور ، فوقفوا صامتين ، حتى بلغهم ، وتألقت عيناه فى ظفر ، وهو يتطلع إلى (فهد) الفاقد الوعى ، قبل أن يقول :

- فقدتم ستة رجال ، وظفرتم به .. عظيم .. كنت

أتوقع خسارة ثمانية رجال ..

لم يرق لهم أسلوبه ، فتبادلوا نظرة عصبية ،
جعلته يقول فى صرامة :

- هيا .. سندفن موتانا ، حتى يتسنى لنا أن نعود
بسرعة ، فالطريق طويل يا رجال .
غمغم أحدهم :

- الطريق ؟!

التفت (هيلموت) إلى الشمال ، وتألفت عيناه فى
ظفر ، وهو يجيب :

- نعم يا رجل .. الطريق .. الطريق إلى
(قرطبة) ..

قالها ، وتألفت عيناه فى ظفر أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..



٢- قفص الفهد ..

تهللت أسارير (فارس) ، وجواده ينهب الأرض
نهباً ، إلى جوار جواد (مهاب) ، وبدت كلماته
مفعمة بالمرح والسعادة ، وهو يهتف :

- ستكون مفاجأة رائعة لعزیزنا (فهد) ، أن نلتقى
به في (شنتقى) .. أنت واثق من أنه لا يتوقع
حضورنا ؟!

أجابه معلّم السلاح (مهاب) في حزم :
- بكل تأكيد .. نحن أنفسنا لم نكن نعلم أننا سنأتى
إلى هنا ، فما بالك به ؟!

لاحت لهما أسوار (شنتقى) من بعيد ،
فهزّ (فارس) رأسه ، قائلاً :

- الواقع أننى لست أرى لماذا طلب منا الشيخ اللحاق
بـ (فهد) في (شنتقى) .. لقد استيقظ والقلق محفور
في ملامحه ، وظلّ مهموماً بعض الوقت ، ثم لم يلبث أن
طلب منا فى إلحاح ، أن نذهب للقاء (فهد) هنا .
ثم سأل فى اهتمام :

- أهو حلم رآه ؟!

هز (مهاب) رأسه فى حزم ، وقال :

- مستحيل ! شيخنا رجل عركته الأيام ، وأكل منه

الدهر وشرب ، وهو ليس بالرجل الذى يتخذ قراراً

كهذا لحلم رآه ، ولا حتى لكابوس أقض مضجعه .

انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

- هناك شىء ما حتماً .. شىء بلغه ، أو رآه

أو سمعه .. المهم أنه لم يتخذ قراره هذا عبثاً .

بدت الحيرة بضع لحظات على (فارس) ، قبل أن

تكتسب ملامحه صلابة واضحة ، ويقول فى حزم :

- أنت لا تعرفه مثلما أعرفه .

بلغا أسوار (شنتفى) ، فى تلك اللحظة ، فأشار

إليه (مهاب) بالصمت ، وهما يجتازان أبواب

المدينة ، ويعبران سوقها بجواديهما ، فى طريقهما

إلى نزل (حالم) ..

وفى اهتمام شديد ، تبعتهما عيون رواد السوق ..

فلأن (شنتفى) هى أقرب مدن (غرناطة) إلى

الحدود ، اعتاد أهلها التطلع إلى كل قادم جديد

بشك وحذر ، وهم يتساءلون عما إذا كان عدواً أم

صديقاً .. أندلسياً أم قشتالياً ..

تاجراً أم متسوقاً ..

أم مقاتلاً ..

فبعد أكثر من نصف قرن ، من التواجد العربى فى
(الأندلس) (*) ، لم يعد من السهل تمييز العربى عن
القشتالى ..

التزاوج بين الجنسين أنجب أجيالاً جديدة ، حملت
ملامح عربية قشتالية أندلسية ..

ملامح اشترك فيها الجميع تقريباً ..

حتى اللغة ، صارت أمراً متداولاً بين الطرفين ..

معظم العرب صاروا يتحدثون الأسبانية بطلاقة ..

ومعظم الأسبان يتحدثون العربية ..

بل يمكن القول إن اللغتين قد امتزجتا ببعضهما

(*) فتح العرب (الأندلس) (عام ٧١١ م) ، وكانت تعرف

عندئذ باسم (فندالسيا) ، وكان عهدهم عهداً ذهبياً ، ازدهرت فيه

التجارة والصناعة والزراعة والتعدين ، وأصبحت خلاله (قرطبة) ،

و (أشبيلية) ، و (غرناطة) مراكز مشهورة للثقافة والعلم والفن .

ولا يزال تأثيرهم واضحاً فى عادات السكان ولغتهم حتى اليوم .

ولقد استعاد الأوروبيون (الأندلس) عام (١٤٩٢ م) .

حتى صنعنا لغة جديدة ، يسهل على الطرفين فهمها ،
والتحدث بها ..

لغة أندلسية خاصة ..

وهذا لا يعنى أن العربية قد تراجعت ..

أو حتى الأسبانية ..

لقد احتفظت كل لغة بأصالتها ، وأدبها ، وفنونها ،
وتاريخها ، وتراثها ..

ونشأت أيضا تلك اللغة الجديدة ..

لغة العامة ، كما يمكننا أن نصفها ..

ولن نكون مبالغين ، لو قلنا إن معظم الأنظار قد
اتجهت إلى (فارس) دون (مهاب) ..

ليس لأنه شاب جميل المحيا ، وسيم الطلعة ،
ممشوق القوام ، متين البنيان فحسب ..

وليس لأنه يرتدى ثيابا بيضاء ناصعة ، لم يعتد
أحدهم رؤيتها ..

ولكن لأنه كان يمتطي جواده على نحو غير مألوف
على الإطلاق ، فى ذلك العصر ..

لقد كان يمتطيه دون سرج أو لجام ، وعلى نحو
يشف عن براعة الفارس ، وأصالة الفرس نفسه ،

الذى سار بعنق قوى ، ورأس مرفوع ، وحوافر
تضرب الأرض فى قوة وانتظام ..

ولأن معظمهم ما زالوا يذكرون تلك الروايات ،
التى يتناقلها الجميع عن أمير (قرطبة) ، وعن
شجاعته وقوته ، وتاريخه المجيد ، قبل أن يلقي
مصرعه غدراً ، على يد القشتاليين ، فقد راحوا
يتهامسون حول ذلك الزى الأبيض ، الذى يشبه تماماً
ما نقله الرواة ، عن زى الأمير الراحل ..
وفى هدوء حازم ، ودون أن يلتفت إلى (فارس) ،
قال (مهاب) :

- يبدو أنهم قد تعرفوك يا فتى .

انعقد حاجبا (فارس) ، وهو يتساءل :

- تعرفوا ماذا بالضبط ؟!

صمت (مهاب) بضع لحظات ، قبل أن يجيب فى
صرامة :

- تاريخك .

لم يحاول (فارس) سؤاله عما يعنيه ، وقد أدرك
بخبرة السنوات الماضية ، أن (مهاب) لن يجيب
أسئلته ، بأى حال من الأحوال ..

ثم إن تلك السنوات نفسها قد جعلته يفهم ما الذى
يعنيه الجميع ..

يفهمه ويستوعبه جيداً ..

ولكنه لم يتحدث عنه أبداً ..

ولن يفعل ، ما لم تضطره الظروف لهذا ..

ولأنه قد قرّر تجاهل الأمر ، فقد عبر السوق مع

(مهاب) فى صمت ، حتى بلغا تلك المنطقة السكنية ،

وتوقفاً بجواديهما عند نزل (حالم) ، ومهّاب يقول :

- هذا هو النزل ، الذى وصفه لنا الشيخ ..

المفترض أن يكون (فهد) داخله الآن .

هبط الاثنان عن متن جواديهما ، ودلفا إلى النزل ،

الذى اكتظّ بالرواد ، فى تلك الساعة ، التى نشطت

فيها حركة الأسواق ، وتوافد العديدون للارتواء

بمشروب حلو ، أو بعض الأعشاب الساخنة المغلية ،

التي تفيد القلب والمعدة ، والتي اشتهر بها نزل

(حالم) بالتحديد ..

وما إن دخل (فارس) و (مهّاب) إلى المكان ، حتى

اتجهت العيون كلها إليهما فى قلق حذر ، فارتسمت على

شفّتي (فارس) ابتسامة هادئة ودود ، وهو يقول :

- طاب صباحكم يا سادة .

كان لهدونه ووسامته وابتسامته أثر كالسحر ، فى نفوس رواد النزل ، الذين انطلقوا يردون تحيته فى حرارة ، فيما عدا (حالم) نفسه ، الذى رمق الاثنين فى توتر ، وهو يسألهما فى حذر :

- بم يمكننى خدمتكما ؟!

أشار إليه (مهاب) ، قائلاً :

- كل ما نحتاج إليه هو قليل من الماء ، وإجابة سؤال واحد .

رمقهما (حالم) بنظرة متوترة أخرى ، ثم التقط ورق المياه ، وصب منه قدحين لهما ، وهو يقول :

- الماء حق للجميع ، أما الجواب ..

لم يتم عبارته ، ولكن (مهاب) ابتسم ، قائلاً :

- ربما كان الجواب أسهل من الماء .

ثم مال نحوه ، هامساً :

- أين (فهد) ؟!

لم يكد الرجل يسمع الاسم ، حتى انتفض جسده فى عنف ، وكأنما هوت على رأسه نيران السماء ، واخترقت جسده إلى قدميه ، وتراجع بحركة حادة ،



لم يكذ الرجل يسمع الاسم ، حتى انتفض جسده فى عنف ،
وكأنما هوت على رأسه نيران السماء ..

أسقطت الدورق من يده ، ليتحطم بين قدميه ، وهو
يهتف بكل انزعاج وذعر الدنيا :

- (فهد) ؟!

اتعقد حاجبا (فارس) فى توتر ، وتبادل نظرة
سريعة مع (مهاب) ، قبل أن يقول للرجل فى

صرامة :

- نعم يا رجل . (فهد) .

الذى يحضر إلى هنا ، كل حين وأخرى ، الجميع

يعرفونه ، ولست أظنك بالذات تجهله .

اتسعت عينا (حالم) فى هلع ، وهو يحدق فيهما ،

قبل أن يزدرد شيئا من لعبه فى صعوبة ، عبر حلقه

الجاف ، قائلا بصوت مرتجف :

- آه .. (فهد) .. إنه لم .. لم يحضر اليوم .

كان جوابه ، بالطريقة التى أنطقه بها ، ونظرات

الدعر والهلع فى عينيه ، أشبه بدليل أدائه ، جعل

(مهاب) يمسكه من قميصه ، ويشده إليه فى غضب

صارم ، وهو يكرر :

- أين (فهد) يا رجل ؟!

لوح (حالم) بذراعيه فى ارتباك ، وهو يصرخ :

(مهاب)

- لست أدرى .. إننى لم أره .. أقسم إننى لم أره
اليوم .

ثم التفت إلى رواد النزل ، صائحا :

- النجدة يا قوم .. النجدة .. إنهما يضمران لى
شرًا .

وقبل حتى أن ينتهى نداؤه ، كان كل رواد النزل قد
هبوا من مقاعدهم ، وقفزت يد كل منهم إلى مقبض
سيفه ، للذود عن الرجل الذى استنجد بهم ..
وبسرعة البرق ، امتشق (مهاب) سيفه ، وصاح
بصوت صارم قوى :

- من يسع لمصرعه فليسحب سيفه .. واللّه
لأقطعن كل رقبة تدور فى نطاق سيفى ، دون شفقة
أو رحمة .

ومع قوله ، استلّ (فارس) سيفه بدوره ، وعلى
الرغم من أنه لم ينبس ببنت شفة ، إلا أن تلك النظرة
الصارمة القاسية المحذرة المتوعدة ، المظلة من
عينيه ، جعلت قلوب الجميع ترتجف فى صدورهم ،
وأيديهم تتجمد على مقابض سيوفهم ، وعيونهم تدور
فى محاجرهما ، فى حيرة وتوتر وتردد ، فى حين تابع
(مهاب) ، بنفس الصوت القوى الصارم :

- نحن لا نسعى لإيذاء أحد ، أو الاستيلاء على
 ما لا نملك أو نستحق ... لقد أتينا للبحث عن رفيقنا ،
 الذي نتق تمامًا بأنه قد جاء إلى هنا هذا الصباح ،
 وذلك الرجل يدرك هذا جيدًا ، ولكنه يخفي أمرًا ما ،
 يخشى أو يهاب البوح به به هنا نين (رسالة)
 تبادل الرجال نظرة شديدة التوتر ، قبل أن يهتف
 أحدهم فجأة نبحا انه رائعا جيد ... نأنا انه لم -
 أنتي أعرفك يا هذا ، (حاله) هجم وقتما
 ثم انفصل عن الآخرين ، وتقدم نحو (مهاب)
 وتطلع إلى وجهه في اهتمام وتمغن ، قبل أن تهمل
 أساريده ، ويهتف في حماس : يا هذا ... جده -
 رباح ! إنك هو ... أنت قائد الفرساني . ب فولاى
 (مهاب) : لفتله : ألبا حواء
 تردد الاسم بين حلق الحاضرين في انبهار ، قبل
 أن يتدافعوا نحوه (مهاب) وهم يهتفون باسمه ،
 على نحو جعل (حاله) يتراجع مذعورا ، ثم ينبحنى
 ليختبئ خلف طاولة (البار) (٥٠) (ستانف)
 وفي رشاقة مذهشة ، عبر (فارس) الطاولة بقفزة
 واحدة ، وقبض على عنق (حاله) به قائلًا فى صرامة :

- إلى أين أيها الحقير ؟!

صرخ (حالم) في رعب :

- إبنى لم أفعل شيئا .. أقسم لك .

ومع ارتجاجة جسده ، المذعور ، التقطت أذنا

(فارس) رنين الذهب فى حزامه ، فالتقط الصرة

بحركة سريعة ، هاتفاً فى غضب :

- ما هذا إذن .. رصيد النزل هذا الصباح ؟!

امتقع وجه (حالم) ، وشحب ، وارتجفت يداه

وهو يحاول استعادة صرة الذهب ، هاتفاً بصوت

مختنق :

- ذهبى .. أعد إلى ذهبى .

جذب (فارس) حزام الصرة ، ثم أفرغها على

طاولة البار ، هاتفاً :

- دعنا نلق عليه نظرة أولاً .

واتسعت عيون الجميع ، وهم يحدقون فى العملات

الذهبية العديدة ، التى حملت على وجهيها نقشا

لصورتي (فرناندو) و (إيزابيلا) ، ملكى (قشتالة)

و (ليون) ، و (فارس) يقول فى غضب صارم :

- عجباً ! إنه ذهب قشتالى يا رجل .

ثم مال يجذب (حالم) من عنقه ، ويجبره على
النهوض ، وهو يستطرد :

- أى عمل حقير ، حصلت من أجله على هذا
الذهب القشتالى يا رجل ؟! وأين (فهد) ؟! أهذا ثمن
خيانتك له ؟!

صاح (حالم) بوجه شاحب كالموتى :

- إنه لم يأت .. أقسم لكما .

وهنا اندفع أحد الحاضرين ، يقول فى حزم :

- لو أنكما تقصدان ذلك الزنجى العملاق ، الذى

يمتطى جوادًا كالليل البهيم . فقد جاء هذا الصباح .

ثم أدار عينيه إلى (حالم) فى صرامة ، مستطردًا :

- وأتى إلى هنا .

استدار (مهاب) عندئذ إلى (حالم) ، بكل غضب

وصرامة الدنيا ، ووضع سيفه على عنقه ، صارخًا :

- أين (فهد) أيها الحقير ؟! ماذا فعلت به ؟!

خرَّ (حالم) ساجدًا على ركبتيه ، وراح يصرخ

برعب هائل :

- الرحمة .. الأمان .. الأمان يا قائد الفرسان .

صرخ فيه (مهاب) :

قل لي أين (فهد) ، وإلا فلا تنبش رخصة
أو أماتا .

انهار (حالم) ، وهو يقول بصوت شاحب كالقبور :
نمنا أخبرك يا قائد الفرسان ، سأخبرك بكل شيء !!
ثم راح يروي لهما ما حدث ..

وبكل التفاصيل ..
وبكل التفاصيل .. (حالم) ..
* * * ..

كل شيء بدا هادئا ، في ذلك المعسكر الصغير
البسيط ، خارج أسوار (غرناطة) ، وفي بساطة
ورصانة ، راح الشيخ يعد طعامه ، مرتديا ثوبا بسيطاً ،
لا يتناسب قط مع ما كان يوقل فيه من فاخر الثياب ،
أيام كان وزيراً أثيراً مقرباً لأمير (قرطبة) ..
كان يؤدي عمله في صمت ، وإن شفت كل خلية
من خلایاه عن قلق خفي ، وهموم خفرت ملامحها
وسط تجاعيد سنوات العمر الطويل . (حالف) ..

ففي أعماقه ، لم تكن نبوة القلق ، التي تصاعدت
منذ يومين مضيا ، قد خفتت بعد ..

هناك شيء غير طبيعي ، يحيط بالموقف في
(شنتفي) ..
(بالله) ..

لقد أرسل رسالة عاجلة ، بوساطة الحمام الزاجل ،
إلى وسيطه هناك ، دون أن يتلقى جواباً شافياً
كالمعتاد ..

أو حتى أى جواب ..
وهذا لم يحدث قط ، منذ بدأت هذه الاتصالات ، فى
عهد (طوقان) ، والد (حالم) ..
لم يحدث إلا فى هذه المرة ، بعد موت (طوقان) ..
وهذا يثير قلقه ..
وشكوكه ..
وبشدة ..

صحيح أنه كان يعرف (طوقان) منذ حدثتهما ..
ولكن هذا لا ينطبق على (حالم) ..
ثم إن الفارق بين الاثنين .. (طوقان) و (حالم) ،
فارق كبير للغاية ..
ف (طوقان) عاش حياته كلها فى (قرطبة) ،
وشهد سنوات كثيرة من اللحمة الأخيرة لمجد العرب
فى (الأندلس) ..
أما (حالم) ، فقد جاء مع النهاية ..
نهاية عصر نهضة (الأندلس) ..

ونهاية حكم العرب في (قرطبة) وليس ليس انما
ليجاء مع ارتفاع راية (اقسقاله) (ليدون) ..
وانحسار الراية العربية ..

ولأن أمه أندلسية، وليست عربية الأصل والمنشأ ،
لم يولد (احالم) بانتماء عربي صرف بل ما انتمى
ومع نموه ، صار أكثر ميلًا لكل ما هو غير عربي
ولكنه أخفى هذا في أعماقه ..
أخفاه بكل ما ورثه من خبث وذكاء ليلا يشك
وعلى الرغم من هذا ، فقد شعر به الشيخ في
أعماقه ..

شئ عظم ، في (خيرته) وتاريخه ، انتمى
شعور بالارتياح ، تجاه ابن (طوقان) ..
والشئ نفسه ، جعله يشعر بذلك القلق ،
تأخرت رسالة (شنتفي) ..
ومن هذا المنطلق ارسل (فزارس) (ولله) (مهلب)
إلى (فهد) ..
حركة خافتة للغاية ، على مسافة ثلاثة أميال إلى
اليسار ، أوقفت سبل أفكاره ، بغتة فجعلته يثب في
خفة ، لا تتناسب مع سنوات عمره ، وذلك الشئ

الأشيب الوقور ، الذي يكسوه رأسه ونحيته ، واختطف سيفه ، واستدار به نحو مصدر الصوت ، وهو يشهره في تحفز متوتر .. !! نأ !! (رقتش) -

« رويدك أيها الوزير جده انه أنا » سنبه نغنا
لم يكد الشيخ يلتقط صوت أمير (غرناطة) ، حتى انخفض سيفه بسرعة ، وارتفع صوته المتهدج ، وهو يقول :

- مولاي (ابن الأحمر) .. اغفر لي تسرعى ، ولكن من منا لا يفتقر إلى الأمان ، فى هذا الزمان ؟! وافقه أمير (غرناطة) بإيماءة من رأسه ، قائلاً : - صدقت .

ثم هبط عن متن جواده ، وتلفت حوله ، قبل أن يتساعل :

- أوحيد أنت هنا ؟!

أجابه الشيخ فى وقار :

- من بلغ مثل عمري ، لا يخشى الوحدة يا مولاي .

ابتسم الأمير (ابن الأحمر) ، وقال :

- كنت أتساعل : أين (فارس) و (مهاب) .

تنهّد الشيخ ، مجيباً :

- المفترض أن يكونا فى (شنتفى) الآن .

التفت إليه الأمير ، مغمغماً ، فى مزيج من التساؤل
والتوتر :

- (شنتفى) ؟! الآن ؟!

ثم اتخذ مجلسه ، على حجر قريب ، وتساءل :

- هل من أخبار جديدة عن القشتاليين ؟!

أجابه الشيخ فى رصانة :

- إنهم يستعدون لضربة كبرى .

اعتدل الأمير ، متسائلاً فى قلق شديد :

- كيف ؟!

صمت الشيخ لحظة ، قبل أن يجيب :

- هذا ما أنتظر معرفته ، فى غضون أيام قلائل .

ردد الأمير :

- ما ننتظر معرفته ؟! ترى أهذا ما أرسلت

(فارس) و (مهاب) إلى (شنتفى) بشأنه ؟!

أوماً الشيخ برأسه إيجاباً ، فاتعقد حاجبا الأمير

بشدة ، وهو يقول :

- ترى ماذا كانت (غرناطة) ستفعل دونك ؟!

ثم نهض ، مستطرداً فى حزم :

- أنت على حق أيها الوزير .. لا أحد يشعر

بالأمان ، فى هذا الزمان ، لذا ...

بتر حديثه ، وفرق سبأته وإبهامه ، فبرز ثلاثة
فرسان أشداء من بين الأشجار ، أشار إليهم الأمير ،
قائلاً :

- ستظل في حراستهم ، حتى يعود (فارس)
و (مهاب) .

غمغم الشيخ متبرماً :

- لست في حاجة إلى حراسة خاصة .

ابتسم الأمير ، وهو يمتطي صهوة جواده ، مجيباً :

- بالتأكيد .

ثم أشار إلى الفرسان الثلاثة ، قائلاً في صرامة :

- الوزير هو سيدكم الآن .. كل أوامره مطاعة .

حنوا رءوسهم صاغرين ، في حين اتفتت الأمير

إلى الشيخ ، مستطرداً :

- عندما يعود (فارس) ، أخبره أنني أريده في

قصرى على الفور .

وجذب عنان جواده ، مضيقاً في حزم :

- عندي له مهمة .. مهمة خاصة جداً .

قالها ، وانطلق بجواده يبتعد ..

ويبتعد ..

ويبتعد ..



امتدَّت السهول الخضراء وارفة مشرقة ، فى ذلك
الصباح ، وساد هدوء تام المنطقة ، حتى بدت أصوات
الطيور وحشرات الحقول واضحة ، و ...

وفجأة ، لاحت سحابة غبار من بعيد ..

وراحت تقترب بسرعة ..

بسرعة كبيرة للغاية ..

ثم برز فارسان فى وضوح ، على متن جواديهما ،
ينهبان الأرض نهبا ..

فارسان عربيان أصيلان ..

كانا ينطلقان بكل حماس وانفعال الدنيا ، وقد
ارتسمت على وجهيهما صرامة مخيفة ، لو وقع
عليها بصر أعدائهما ، لسقطت قلوبهم بين أقدامهم ،
من فرط الهلع والرعب ..

وعلى الرغم من سرعة الفارسين ، جذب أحدهما
معرفة جواده فى قوة ، وضغط بطنه بفخذه ، وهو
يهتف :

- هنا يا (رفيق) .. هنا .

غرس الجواد العربى الأبيض الأصيل حافريه
الأماميين فى الأرض، وفرد صدره القوى إلى الأمام ،
وهو يطلق صهيلًا قويًا ، فى حين جذب (مهاب)
عنان جواده ، هاتفاً :

- لماذا نتوقف يا (فارس) ؟!

وثب (فارس) عن صهوة (رفيق) ، وهو يتجه
نحو بقعة من الأرض ، قائلاً :

- انظر هناك .. لقد نشب قتال عنيف ، عند تلك
الشجرة الكبيرة .

قفز (مهاب) عن جواده بدوره ، واتجه إلى
البقعة نفسها ، وفحص الآثار فى اهتمام ، ثم غمغم ،
وكأنه يحدث نفسه :

- اثنا عشر رجلاً .. بل ستة عشر .. أربعة منهم
انطلقوا متوازين .

قال (فارس) فى توتر :

- وكانوا يحملون شيئاً ، بلغت أطرافه الأرض .

انحنى (مهاب) يمس تلك الآثار ، مكملًا :

- شئ يتكوّن من خيوط ثقيلة .

انعقد حاجبا (فارس) فى شدة خوفه وهو يقول فى
حزم :

- شبكة من المعدن .

انعقد حاجبا (مهاب) بدوره ، وارتفعت عيناه
تتابعان أثرا واضحا على الأرض ، وهو يقول فى
عصبية :

- الجواد دافع عن صاحبه فى بسالة .
قالها ، والتقت عيناه بعينى (فارس) ، وانطلقت
من عيونهما صاعقة من الحزم والغضب والإصرار ،
و (مهاب) يضيف :

- الشمال الشرقى .. ثلاث ساعات تقريبا .
وكان هذا آخر ما تبادلاه من حديث ، قبل أن يندفع
كل منهما إلى جواده ، ويثب إلى صهوته ، ثم ينطلق
الجوادان ينهبان الأرض نهبا ، فى الطريق إلى حيث
انطلق القشتاليون بأسيرهم ..
الطريق إلى (قرطبة) ..

★ ★ ★

« توقفوا » ..

انطلق الهتاف من حلق (هيلموت) فى صرامة ،



.. الشمال الشرقى .. ثلاث ساعات تقريباً .
وكان هذا آخر ما تبادلاه من حديث قبل أن يندفع كل منهما ..

وهو يجذب عنان جواده فى قوة ، فتوقّف الركب
القشتالى دفعة واحدة ، حتى كاد (فهد) الفاقد الوعى
يسقط عن الجواد ، الذى وضعوه فوقه ، لولا أن
أمسك به أحد الفرسان القشتاليين ، وهو يقول فى
خشونة فرضها جفاف حلقه الشديد :

- لماذا نتوقّف الآن أيها الجرمانى؟! الجياد
بمقدورها أن تواصل العدو حتى الغروب ، وكلنا
أقوياء ، و ...

قاطعه (هيلموت) فى صرامة :

- لا تناقش أوامرى .

انعقد حاجبا القشتالى فى غضب ، وهمّ بقول
شئ ما ، ولكن (هيلموت) جذب عنان جواده ،
ليميل نحوه ، وهو يستطرد فى صرامة أكبر :

- وعندما تتحدّث إلى ، فى المرة القادمة ، حاول
أن تتذكّر أننى هنا بأوامر من مليكك مباشرة ، وهذا
يعنى أن تخاطبنى بلقب القائد ، وليس بالإشارة إلى
جنسيتى .. أهذا مفهوم؟!

ازداد انعقاد حاجبى القشتالى ، وأطلّت من عينيه
نظرة عصبية غاضبة ، وقفزت يده بحركة غريزية
إلى مقبض سيفه .. و ...

وبدا وكان الغيوم تنعقد على رؤوس الجميع
ولكن تلك النظرة الباردة، الصارمة، القاسية،
المظلة من عيني (هيلموت)، لم تلبث أن حطمت
نظرة الغضب، في عيني وقلب القشتالي، فارتخت
أصابعه الممسكة بمقبض سيفه، وتراجع مغمغماً
في حدة: « سحبي - انقذ تلك العيلة - قاتلها »

- طاعة الملك (فرناندو) فوق كل اعتبار .
غمغم الألماني في برود :
- بالضبط .

قالها ، وأدار جواده بعيداً ، وراح يدير عينيه فيما
حوله ، بحثاً عن شيء ما ، على نحو جعل الفرسان
القشتاليين يتبادلون نظرة حائرة ، قبل أن يسأل
أحدهم :

- نحن بانتظار أحد أيها القائد ؟!

صمت (هيلموت) بضع ثوان ، قبل أن يرفع
سبابته ، مشيراً إلى الشرق ، وقائلاً في صرامة :
- هذا .

أدار الجميع عيونهم إلى حيث يشير ، وتوقفت
أبصارهم عند سحابة من الغبار ، بدت من بعيد ،

وراحت تقترب وتقترب ، حتى بدا وسطها فارس قوى
البنية ، على متن جواد مبرقش ببقع بنية كبيرة ..
وكان من الواضح أن الألمانى ينتظر وصول ذلك
الفارس بلهفة واهتمام شديدين ، فعلى الرغم من
بروده المعهود ، أطلت من عينيه نظرة متوترة
للاغاية ، وهو يتابع ذلك الفارس ببصره ، حتى بلغ
الركب ..

كان أسود الشعر ، أسمر البشرة ، قوى البنية ،
يحمل ملامح أندلسية واضحة ، امتزجت بعينين
زرقاوين ، اشتركت مع سمرته ، لتمنحه مظهراً
عجيباً ..

وبغطرسة عجيبة ، تجاهل ذلك القادم كل الفرسان
القشتاليين ، واتجه نحو (هيلموت) مباشرة ، وراح
يتحدث إليه بلغة لم يفهم أحدهم حرفاً واحداً منها ..
واتعقد حاجباً (هيلموت) بشدة ، وهو يستمع إلى ذلك
القادم ، وارتفعت يده تحك ذقنه فى توتر ملحوظ ، ثم
استدار يلقي نظرة نحو الجنوب ، قبل أن يلقي بضع
كلمات قليلة للقادم ، الذى أوماً برأسه إيجاباً ، ثم أدار
غان جواده ، وعاد ينطلق من حيث أتى ..

وبشئ من العصبية ، قال أحد القشتاليين : -

- ما الذى يحدث بالضبط ؟!

تجاهل (هيلموت) السؤال تماماً ، وهو يقول فى صرامة :

- سننفصل هنا .. سيبقى خمسة منكم فى هذه البقعة ، وسيواصل الباقون مسيرتهم معى إلى (قرطبة) .

تبادل الفرسان نظرة متوترة ، قبل أن يهتف أحدهم :

- ولماذا يبقى خمسة منا هنا ؟!

أجابه (هيلموت) فى صرامة شديدة :

- لأن أوامر الملك (فرناندو) تؤكد حتمية وصول هذا الزنجى إلى (قرطبة) سالماً ، بأى ثمن .
قال الرجل فى حدة :

- وما الذى سيمنع وصوله سالماً ؟!

أجابه فى صرامة شديدة :

- غباؤكم .

اتسعت عيون الجميع فى دهشة مستنكرة ، لم تلبث أن تحولت إلى غضب هادر ، كادوا معه يمتشقون سيوفهم ، لولا أن هتف الألمانى فى غضب صارم :

- ذلك الفارس الأبيض يطاردنا ، محاولاً استعادة رفيقه .

لم يكد يأتى على ذكر (فارس) ، حتى تحول غضب القشتاليين إلى موجة من التوتر ، تبادلوا معها نظرة أخرى ، قبل أن يجذب أحدهم سيفه فى حدة ، هاتفاً :

- سنروى السهول بدمائه إذن .

أشار الألمانى بسبأته ، قائلاً فى حزم :

- هذا ما عنيته بالضبط .

لم يكد ينهى عبارته ، حتى انطلق فى المكان سهيل جواد قوى ، فاستدارت كل العيون إليه ..

وكان المشهد مهيباً رهيباً بحق ..

فعلى متن ذلك الجواد ، الذى أطلق صهيله ، كان (فهد) ينتنى على نحو بالغ المرونة ، إلى حد مذهل ، ويحل قيود كاحليه ، بأصابع يديه المقيدتين من خلف ظهره ، وقد اتشنت ساقاه إلى الخلف بأسلوب بدا وكأنه مستحيل تماماً ..

وبكل قوته وانفعاله ، صرخ (هيلموت) :

- امنعوه .. امنعوه من الفرار ..

ومع آخر حروف صيحتَه ، كان (فهد) قد تخلص
من قيود كاحليه بالفعل ، ووثب إلى الأرض ،
ومعصماه مازالا مقيدين خلف ظهره ..

وبسرعة مذهشة ، امتشق القشتاليون سيوفهم ..
وانطلقت من حناجرهم صرخة قتالية مخيفة ..
وكرجل واحد ، انطلق القشتاليون العشرة نحو
(فهد) ، وسيوفهم تضرب الهواء على نحو رهيب ..
وبتكنيك قتالي مذهش ، أحاطوا بالعملاق الأسود ،
الذى راح يقاتل فى عنف وقوة ، للتخلص من قيوده ..
وعلى الرغم من الأوامر المشددة ، بالإبقاء على
حياة (فهد) ، لمح الألمانى فى عيون فرسان قشتالة
نظرة دموية مخيفة ..

ولأنه يدرك طبيعتهم جيّداً ، فقد أدرك أنهم
سيتجاهلون حتماً أوامر الملك ..
وسيطيعون الشيء الوحيد ، الذى تدربوا عليه ،
منذ وعت عيونهم الدنيا ..
القتل وإراقة الدماء ..

وبكل قوته ، هتف (هيلموت) ، وهو يجذب عنان
جواده :

ولا تَقْتُلُوهُ . لَكُم مَتَعَتُهُ سَعِيدٌ .
ولكن صيحتَه ذهبَت سدى ، مع تلك الرغبة العارمة
فى قلوب القشتاليين ، للانتقام ممن ذهب بأرواح
رفاقهم .

وضاعت صيحتَه أيضاً مع صرخة (فهد) ، التى
زلزلت الأرض ، وتردّدت فى السهول الواسعة ، حتى
كادت تبلغ مسامع (فرناندو) فى (قرطبة) ..
والعجيب أن تلك الصرخة لم تفت فى عضد
القشتاليين العشرة ، وسيوفهم ترتفع ، فى وجه
العملاق الأسود . الذى لم ينجح فى التخلص من
قيوده ..

ثم تهوى ..

بمنتهى العنف ..

والقسوة ..



بنتي زينة ، تالفة من (مهاب) ليهذه بقعة
أعني من ، من مهاب ، ليهذه بقعة ، مهاب
بنتي زينة :

٣- الفرسان .. (مهاب) مهاب ..

« مهلاً » ..

هتف (فارس) بالصيحة ، وهو يجذب معرفة
جواده بكل قوته ، قبل أن يثب عن متنه ، في رشاقة
مدهشة ، وينحن ليفحص بقعة من الأرض ، فاتجه
إليه (مهاب) ، متسائلاً :

- ماذا هناك ؟!

أشار (فارس) إلى الآثار ، قائلاً :

- إننا نطارد أحد عشر فارساً ، وجواداً منفرداً .

قال (مهاب) في دهشة :

- جواد ماذا ؟!

أجابه (فارس) في حزم :

- انظر حوافر هذا الجواد الأخير .. إنها لم تنغرس في

الأرض إلى نفس العمق ، الذي انغrust به حوافر الجياد

الأخرى ، وهذا يعني أنه لا يحمل فارساً على متنه .

اتعقد حاجبا (مهاب) بضع لحظات ، قبل أن يثب
عن جواده ، وينحنى فاحصا الآثار بدوره ، ثم يقول
في توتر :

- إنه جواد (فهد) ... **نلسن** ٣ -

سأله (فارس) في دهشة :

- وكيف تعرفته ؟!

« كسبه »

أشار (مهاب) بيده ، مجيبا :

- إنه استنتاج محض ، فنحن لم نعثر على جثته ،

حيث نشب القتال ، وهذا يعنى أنه لم يلق مصرعه ..

قال (فارس) فى حماس :

- وأنه يتبع سيده .

مط (مهاب) شفتيه ، مغمغما :

- ربما .

نهض (فارس) واقفا ، واتجه نحو جواده ،

ووثب بعينيه ، قائلا فى حزم :

- لا تفسير آخر .

ثم جذب معرفة جواده ، ولكزه بركبتيه فى بطنه ،

هاتفا :

- هيا يا (رفيق) .. لكل دقيقة ثمنها ..

وثب (مهابت) بدوره على متن جواد البحر
 وانطلق الجوادان .. في ساحة العلم .. العسكرة -
 هت والفارسان ... في ساحة العلم .. هتتيا مع
 رسيان ، قسما كالب * يتفشت * في ربه شغلها
 فجأة ، انطلق صهيل قوى .. في الساحة
 واقتحم جواد أسود كالليل دائرة فرسان (قشتالة) ..
 اقتحمها ، في نفس اللحظة ، التي كادت فيها
 السيف تهوى على عنق (فهد)
 وبقفزة مذهشة ، ضرب الجواد أحد الفرسان
 القشتاليين ، في ظهره ، فدفعه إلى الأمام ، ليرتطم
 بزميل له ، مال سيفه مع عنف الارتطام ، فأصاب به
 خوذة زميل ثالث ..
 ومع الهرج المبالغت ، انحنى (فهد) يتفادى
 ضربات السيوف ، ثم اندفع إلى الأمام ، وضرب أقرب
 جواد له في صدره ، فصل الجواد ، وارتفعت قائمته
 الأمامية على نحو عريض ، مما أفقد فارسه
 توازنه ، فسقط أرضا في عنف عليه (لبعاء)
 وفي نفس اللحظة ، كان الجواد الأسود يتفادى
 ضربة سيف ، ويطلق صهيلاً غاضباً ، وهو يضرب
 فارساً آخر .. في الساحة هتتيا شغلها ، هتتيا

وبكل غضب الدنيا ، هتف (هيلموت) :
- تماسكوا .. أكملوا الدائرة .. اقتلوا الجواد ..
ولم ينتبه ، إلا فى اللحظة الأخيرة ، إلى أن عبارته
قد انطلقت من بين شفثيه بالألمانية ، وليس
بالقشتالية ..

وأن أحدا من الفرسان لم يفهم ..
وربما لم يسمعه ..
فقد كانت صرخات (فهد) تشق المكان ، وصهيل
جواده يخترق الآذان ..

وصرخات القشتاليين تتبعثر فى كل مكان ..
ثم انطلق صفير ، وسط كل هذا ..
صفير جعل الجواد الأسود يتراجع بغتة ، ويطلق
صهيلا أكثر قوة ، ثم يعدو وسط فرسان قشتالة ،
متجها نحو سيده ، الذى انطلق يعدو بدوره ، بجسده
الأسود القوي ، ومعصماه مقيدان خلف ظهره ..
وانعقد حاجبا (هيلموت) ، أمام ذلك المشهد ،

وهتف :
- أوقفوه .. أوقفوا الزنجى .
هذه المرة ، انطلقت صيحته بالقشتالية ..

ولسبع والتقطتها أذان الفوسان .. ما به نلت بانيه لحقة
رسو كرجل واحد ، اندفعوا نحو (فهد) ، الذي راح
يعدو بسرعة مذهشة ، وجواده يتجه إليه بأوامرهم
ووئب (فهد) ..
(وكانت وثبة لا مثيل لها .. قلنا رسفاً في
قط ..
.. حمود (تميمية) قلنا : ولمّا راها
وثبة فارس مقيد ، نحو جواده ، الذي يعدو بأقصى
سرعة ..
.. ما به (تميمية) شعر قلنا :
ولكن أروع ما في هذه الوثبة هو أنها وضعت
الفارس الزنجى على متن جواده .. ما به
بالضبط ..
ومع إدراكه أن الأمور قد اسارت على ما أراد ،
أطلق الجواد صهيلاً آخر ، وترك فارسه ينحني
بصدره إلى عنقه ، ويضم فخذه إليه بقوة ، قبل أن
يزيد من سرعته ، ويعدو كريح عاصفة ، في قلب
شتاء قاس . هيموت (تميمية) ما به شعره
وانطلقت من حلق فرسان (قشالة) صراخه
غاضبة ..
.. « جتنا ليا تيس »
لما (هيلموت) ، فلم يفلت من بين شفتيه حرف واحد ..

فقط جذب عنان جواده بكل قوته ، وانعقد حاجباه
فى شدّة ، وهو يجذب سهمًا من كنفاته ، ويدس
مؤخرته فى وتر قوسه ، ثم يصوبه بدقة ..
بمنتهى الدقة ..

وفى نفس اللحظة ، التى وثب فيها جواد (فهد)
إلى الأمام ، أطلق (هيلموت) سهمه ..
وانطلق السهم ..

وانطلق معه (هيلموت) بجواده ..
وانطلق أيضًا صهيل قوى ، من الجواد الأسود ..
صهيل ألم حاد ، عندما انغرس سهم الجرمانى فى
فخذة ..

وعلى الرغم منه ، اختل توازن الجواد ..
وسقط ..

ومع سقوطه ، ارتطم جسد (فهد) بالأرض ،
وتدحرج فى عنف ، قبل أن يسيطر على نفسه ،
ويوقف جسده ، ثم يهبط واقفاً على قدميه ، ومعصماه
مازالا مقيدتين خلف ظهره ، و
« خسرت أيها الزنجى » ..

هتف بها (هيلموت) ، وهراوته تهوى على رأس

(فهد) ، فى نفس اللحظة التى نهض فيها هذا الأخير ..

وكانت الضربة عنيفة ..

إلى أقصى حد ..

وسقط (فهد) مرة أخرى ..

سقط فاقد الوعي ..

أما الجواد ، فقد نهض فى صعوبة ، وحاول أن يتقدم نحو سيده ، وهو يطلق صهيلاً عصبياً ..

ولكن (هيلموت) التقط سهمًا آخر من كنانته ، وهو يقول فى غضب :

- إبنى أبغض قتل الجياد ، ولكننى لن أتردد لحظة فى إطلاق سهمى الثانى على عنقك ، لو واصلت عنادك هذا ..

خيل إليه أن الجواد الأسود قد فهم كل كلمة نطق بها ، فقد رفع عينيه إليه لحظة فى صمت ، وبدأ وكأنما قد نقل بصره من الوجه إلى السهم ، قبل أن يطلق صهيلًا خافتًا ، ويلقى نظرة سريعة على سيده ، ثم يبتعد بأقصى سرعة تسمح بها إصابته ..

وهتف أحد فرسان (قشتالة) ، وهو يعدو نحوه بجواده :

أنهم لا تسمحوا لذلك الجواد الحقيق بالفرار . (لاهة)

وقبل أن يتم القشتالي عبارته ، أطلق (هيلموت)
سهمه ..

واتسعت عينا القشتالي ، وانطلقت من حلقه شلهقة
ألم ذاهلة مذعورة ، عندما اخترق سهم (هيلموت)
عنقه ، وألقاه عن جواده جثة هامدة ..

واتسعت عيون الفرسان الباقين في ذعر مستنكر ،
قبل أن تنطلق من حلقهم صرخة غضب ..
واستل (هيلموت) سيفه ، صارخا في صرامة
غاضبة مخيفة :

- لو حاول أحدكم ، مجرد محاولة ، ساقطع عنقه
بلا تردد ..

صاح به قشتالي ثائر :
- لقد قتلت أحد الرفاق ..
صرخ (هيلموت) :
- سأكررها ، مع كل من يتجاوز الأوامر ، أو يتخذ
من نفسه قائدا لنفسه .. هل تفهمون ؟ أنا القائد
هنا .. الملك (فرناندو) منحني هذه الصفة ، وكل
من يرفضها أو يتجاوزها خائن يستحق القتل ..



وقبل أن يتم القشتالي عبارته ، أطلق (هيلموت) سهمه ..

وانعقد حاجباه فى شدة ، وهو يضيف :

- أليس هذا ما أقسمتم عليه يا فرسان (قشتالة) ؟!

سرى توتر عنيف بين القشتاليين ، وتبادلوا نظرة عصبية متوترة ، قبل أن يغمرهم أحدهم :

- كان يطارد جوادا مصابا فحسب .

هتف (هيلموت) :

- سأقتل من يحك أنفه ، اءون أمر مباشر بهذا .

وازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يهتف :

- ما رأيكم يا فرسان (قشتالة) ؟! ما قولكم ؟!

تبادل الفرسان نظرة أخرى ، قبل أن يقول كبيرهم :

- سنطيع كل ما أمر به مولانا (فرناندو) .

ظل (هيلموت) معقود الحاجبين ، يدير فيهم

عينيه بضع لحظات ، قبل أن يعيد سيفه إلى غمده ،

قائلا فى صرامة :

- عظيم .. فى هذه الحالة ، استمعوا إلى جيداً ،

ونفذوا كل ما سأمركم به ، فالفرسان اللذان

يطارداننا ، خبيران فى تقصى الأثر .

وعاد حاجباه ينعقدان ، وهو يضيف :

- وسنحاول استغلال هذا .. إلى أقصى حد .

... (تيمليه) قلنا ، من لبة بالتشقا هت نا ربيع

قالها ، وراح يملأ أوامره الجديدة ..
الأوامر ، التي جعلت الكل يوقن أنه يستحق منصب
القيادة هذا ..
وعن جدارة ..

★ ★ ★

بدأت الشمس رحلة المغيب ، و (فارس) و (مهاب)
ينطلقان على متن جواديهما ، متتبعين آثار الفرسان
القشتاليين وحملهم ، وعند البقعة التي دار فيها
القتال ، أشار (مهاب) بيده ، قائلاً :
- هنا .

وثب (فارس) عن متن جواده ، وأسرع يفحص
الآثار ، هاتفاً :

- رباه ! لقد اشتبك معهم (فهد) هنا .

أضاف (مهاب) في حزم :

- عشرة فرسان ، على متون جيادهم ، و (فهد)
يقا تل على قدميه .

قال (فارس) :

- جواده تدخل ، وبعضهم سقط ، و....

قاطعه بغتة سهيل ضعيف ، جعله يلتفت إلى
مصدره ، ويهتف :

- رباه ! إنه جواد (فهد) .

ارتفع حاجبا (مهاب) ، وهو يعدو نحو الجواد ،
هاتفا في انزعاج :

- إنه مصاب ..

كان الجواد الأسود يرقد على جاتبه ، وسهم
(هيلموت) ما زال مغروسا في فخذه ، الذي أغرقه
الدماء ، فأسرع (مهاب) يفحصه ، وهو يهتف :

- رباه ! هذا الجواد بحاجة إلى إسعاف عاجل .

ثم ربت على فخذ الجواد في حذر ، قبل أن يجذب
السهم في قوة ، فأطلق الجواد سهيلا قويا ، وانتفض
جسده في عنف ، وإن أعجزته إصابته عن النهوض ،
فراح عنقه يرتفع وينخفض في عصبية ، جعلت
(مهاب) يربت عليه ، متمتما في تعاطف مشفق :

- اهدأ أيها الجواد .. اهدأ .. كل شيء سيصبح

على ما يرام بإذن الله (سبحانه وتعالى) ..

سأله (فارس) في توتر :

- هل يمكنك مداواته ؟!

أوماً (مهاب) برأسه ، مغمغماً :
- بعناية الله (عز وجل) .
وقف (فارس) يراقبه بضع لحظات ، قبل أن
يتلفت حوله ، متمتماً :

- كانت محاولة فاشلة من (فهد) ..
غمغم (مهاب) ، وهو يداوى الجواد :
- لقد أفقدوه الوعي .. أليس كذلك ؟!
أوماً (فارس) برأسه إيجاباً ، ثم اتحنى يفحص
الأثار ، قبل أن يقول فى عصبية غاضبة :
- يا للأوغاد !! لقد قيدوا معصميه إلى أحد
جيادهم ، ليعدو خلفهم مضطراً طوال الوقت !
عض (مهاب) شفتيه فى مرارة غاضبة ،
مغمغماً :

- إنهم يستنزفون قوته ؛ حتى لا يسعى للفرار مرة
أخرى .
كرر (فارس) ، وهو يقبض على مقبض سيفه
فى قوة :

- يا للأوغاد !!
ثم أدار عينيه إلى الأفق ، يراقب رحلة الشمس إلى
الغروب ، وهو يقول فى حزم :

- من الواضح أنهم ينطلقون منذ أول النهار ، دون التوقُّف إلا للضرورة القصوى ، وجيادهم لن تحتل هذا حتمًا ، مما سيضطرهم إلى التوقُّف ، مع هبوط الليل .

واصل (مهاب) عمله مع الجواد ، وهو يقول :
- الليل سيمنعنا من تعقب آثارهم أيضًا .

قال (فارس) في حزم :

- هذا يعنى حتمية أن نحدّد وجهتنا ، قبل أن تختفى الشمس فى الأفق .
قالها ، ووثب فى خفة على متن جواده ، وهو يكمل :

- وإلا ...

لم يتمّ عبارته الأخيرة ، وهو ينطلق بالجواد لبعض الوقت ، و ...
وفجأة ، جذب معرفة جواده فى شدة ، وانعقد حاجباه ، وهو يتطلّع إلى الآثار على الأرض ، متممًا :

- عجبًا ! الأمر يبدو وكأن ...

لم يحاول إكمال عبارته ، فى هذه المرة أيضًا ،

وهو يشب عن متن جواده ، ثم ينحنى ليفحص الآثار
بدقة أكثر ..

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يقول :
- رباه ! لقد انقسموا إلى قسمين .. قسم حمل
(فهد) إلى الشمال الشرقى ، والقسم الآخر ...
قبل أن يتم عبارته ، انطلقت صيحة (مهاب) ،
ممتزجة بصليل السيوف ..

واستدار (فارس) بأقصى سرعته إلى حيث
(مهاب) ، ووقع بصره على قائد الفرسان ، وقد
انخرط فى قتال عنيف ، مع خمسة يرتدون ثياباً
أندلسية ..

ويقاتلون كالفشتاليين ..

ودون كلمة واحدة ، وثب (فارس) على متن
(رفيق) ، واستل سيفه ، وهو ينطلق نحو المعركة ..
أما (مهاب) ، فعلى الرغم من مفاجأته بظهور
الفشتاليين الخمسة ، إلا أن طبيعته وخبراته السابقة ،
قد ساعدته على هضم المفاجأة بسرعة البرق ، وهو
ينتزع سيفه من غمده ، ويستقبل انقضاضتهم كالأسد ،
وهو يطلق صيحة قتالية قوية ..

ولكن القشتاليين الخمسة كانوا يقاتلون بشراسة
لا مثيل لها ..

وعلى الرغم من علمهم بوجود (فارس) ، على
قيد أمتار قليلة ، وعلى مرمى أبصارهم ، إلا أنهم
تجاهلوا وجوده تمامًا ، وانقضوا كلهم على (مهاب)..
كان من الواضح أنهم قد انتظروا هذه اللحظة
بالذات ..

لحظة انفصال الفارسيين ..
وأنهم يهدفون إلى الانفراد بفارس واحد ، و
وقته ..
بلا رحمة ..

★ ★ ★

وقف الملك (فرناندو) صامتًا ساكنًا ، في شرفة
قصره الكبير في (قرطبة) ، يراقب غروب الشمس ،
وهو يحمل كأسه ، التي امتلأت حتى منتصفها ، وقد
انعقد حاجباه في شدة ، توحى بغرقه في بحر تفكير
عميق ..

ومن خلفه ، ارتفع صوت ارتطام كعبين ثقيلين
بعضهما البعض ، مع صوت جهورى ، يقول :

- مولاتى الملكة (إيزابيلا) ، ملكة (قشتالة)
و (ليون) .

مط (فرناندو) شفتيه ، فى شىء من الاستهجان ،
وهو يستدير إلى حيث دلفت الملكة ، بجمالها الساحر
الشهير ، واعتدادها الأكثر شهرة ، ثم عاد يشيح
بوجهه ، مغمغماً :

- مرحباً بجميلة الجميلات .

انعقد حاجباها ، مع رنة السخرية فى عبارته ،
وقالت فى شىء من الصرامة :

- ما الذى يحدث بالضبط يا (فرناندو) ؟!

مط شفتيه مرة أخرى ، وهو يقول :

- وما الذى تتصورين أنه يحدث يا (إيزابيلا) ؟!
تسللت رنة ساخرة إلى لهجتها الصارمة ، وهى
تقول :

- أخبرنى أنت ، فأنا لم أرك قط بهذه الهيئة ،
إلا عندما تنتظر أخباراً مهمة من (غرناطة) .
قال فى سخرية :

- يا للبراعة !

ثم ألقى محتويات كأسه كلها فى حلقه دفعة
واحدة ، قبل أن يلتفت إليها بوجه محتقن ، قائلاً :

- صدقت يا مليكتي .. أنا أنتظر بالفعل أخباراً
مهمة من (غرناطة) .

ومال نحوها ، ليضيف :

- أخباراً قد تفتح لنا الطريق إليها على مصراعيه .
لم يبد عليها التأثير بعبارته الأخيرة ، وهي تسأله :
- وأية أخبار تلك ؟!

تألقت عيناه ، وهو يجيب :

- خبر وقوع الفهد في أسرنا .

بدت عليها الحيرة ، وهي تسأله :

- أي فهد ؟!

تراجع بحركة حادة ، وأطلق ضحكة عالية مجلجلة ،
استفزت مشاعرهما كلها ، فهتفت في حدة :

- أي فهد يا (فرناندو) ؟!

تجاهل سؤالها تماماً ، وهو يشير إلى خادمه
الأبكم ، الذي اندفع يملأ كأسه ، ثم تراجع في
سرعة ، و (فرناندو) يقول :

- هل تعلمين يا عزيزتي أن حربنا مع (غرناطة)
ليست حرباً عسكرية بالدرجة الأولى ؟! إنها حرب
مبادئ وأفكار .. مبادئنا وأفكارنا تحارب مبادئهم ،

وأفكارهم .. ورموزهم أيضاً .. ولقد ربحتنا
منهم (قرطبة) ، عندما أفسدنا أفكارهم ومبادئهم
لعدة سنوات ، ونشرنا بينهم الرشوة والفساد وحب
استغلال النفوذ .. تماماً كما يقول دينهم .. لقد دفعنا
مترفيهم إلى الفسق والفساد .
قالها ، وقهقه ضاحكاً مرة أخرى ، فهتفت في
عصبية :

- لست أرى في هذا ما يضحك .
لوّح بسبابته في وجهها ، هاتفاً :
- بالضبط يا جميلتي .. إنها بليّة .. وشر البليّة
ما يضحك .. لقد حصلنا على وسيلة تدميرهم من
دينهم نفسه ، وهم لا يدركون (*) .. هذا لأن أسهل ما
يمكنك فعله هو دعوة المترفين إلى الفسق واستغلال
النفوذ .. إنه أمر يبدو لهم ممتعاً ، ودليلاً على

(*) القرآن الكريم .. الآية رقم (١٦) من سورة (الإسراء) ..
بسم الله الرحمن الرحيم (وإذا أردنا أن نهلك قرية ، أمرنا
مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً)
[صدق الله العظيم] .

سطوتهم وقوتهم ، فينغمسون فيه ، ويتباهون به ،
ويسرفون في ارتكاب الأخطاء والمعاصي ، حتى ينهار
المجتمع من أساسه ، ويكونون هم أول الساقطين .

اتعقد حاجباها ، وهى تقول :

- عجباً ! لم أعهدك حكيماً مؤمناً هكذا ؟!

قهقه ضاحكاً مرة أخرى ، وقال :

- لا شأن للأمر بالإيمان والحكمة يا جميلتى .. إنها

وصفة تصلح لكل الأحوال والأزمان .. صدقيني أنا .

ثم اتعقد حاجباه فجأة ، وهو يضيف فى صرامة :

- وفى (غرناطة) ما زالت هناك رموز ومبادئ ..

ذلك الفارس الأبيض صار رمزاً للطهارة والنقاء

والبطولة ، والشيخ المأفون صار رمزاً للحكمة ..

حتى قائد الفرسان الكهل ، صار رمزاً للمقاومة

والبقاء .. وحتى يمكنك هزيمة مملكة (غرناطة) ،

والحاقها بما صار لنا من (الأندلس) ، عليك أن

تحطى تلك الرموز أولاً .

بدا لها منطقه سليماً عبقرياً ، فتمتعت :

- أهذا كل ما تسعى إليه إذن ؟! أن تحطم

رموزهم ؟!

هتف ، ملوحًا بكأسه :

- هذا هو الهدف الرئيسي ..

ثم عاد حاجباه ينعقدان ، وهو يضيف :

- ولكن الهدف الأكثر أهمية وعجالة الآن ، هو

استعادة ذلك الزنجى ، قبل أن ينقل ما لديه

للأندلسيين .

غمغت فى دهشة :

- ما لديه ؟!

ازداد انعقاد حاجبيه ، وهو يقول فى صرامة :

- نعم يا جميلتى .. ما لديه .

وعلى الرغم من دهشتها وحيرتها ، فالملك

(فرناندو) لم يزد حرفاً واحداً ..

على الإطلاق ..

★ ★ ★

انقضَّ القشتاليون الخمسة على (مهاب) بتكنيك

مدروس بدقة مذهلة ، إذ هاجمه ثلاثة منهم مباشرة ،

فى حين انقضَّ الاثنان الآخران من الجانبين .

وبكل قوته ، قاتل (مهاب) ..

ولكن كيف لفارس واحد ، مهما بلغت قوته ، أن
يتصدى لخمسـة سيوف فى آن واحد ؟!
كيف ؟!

لقد تصدى سيف (مهـاب) لثلاثة سيوف ، وتراجع
محاولاً تفادى السيف الرابع ..
ولكن الخامس لم يمـهله ..

فمع تراجعـه ، شعر بنصل السيف الخامس ينـغرس
فى ظهره ..

واتدفع (مهـاب) إلى الأمام ، لينتزع ذلك النصل
من ظهره ..

وهنا ، غاص نصل آخر فى فـخذه ..

وارتفعت سيوف القشتاليين الخمسة ، لتنتهى القتال
بضربة واحدة قاتلة ، مع مرأى الدماء ، التى تدفقت
من جراح (مهـاب) ..

ولكن (فارس) أطلق صيحته ..
وانقضَّ بكل قوته ..

واستدار ثلاثة من القشتاليين لمواجهته ، فى حين
هوى الاثنان الآخران بسيفيهما على (مهـاب) ..
وتلقى (مهـاب) السيفين على نصل سيفه ، فى

نفس اللحظة التي هوى فيها (فارس) بسيفه ،
صارخاً :

- أيها الأوغاد .

أصاب سيفه عنق قشتالي ، ثم تركه ليغوص في
صدر ثان ، في نفس اللحظة التي انقضَّ فيها (مهاب)
على ثالث ، وانقضَّ عليه القشتالي الرابع ..
وأطلق (فارس) صيحته ثانياً ..

وضرب ..

وضرب ..

وتدفقت الدماء في عنف ..

ثم هدأ كل شيء دفعة واحدة ..

وفي حزم ، مسح (فارس) الدماء عن نصل سيفه ،
وهو يتلفت إلى معلمه ، هاتفاً في توتر وانزعاج :
- أنت بخير ؟!

أشار (مهاب) بيده ، قائلاً :

- إنني مصاب في مواضع شتى ، ولكنني بخير ..
لا توجد إصابات قاتلة والحمد لله .

سأله (فارس) ، وهو يفحص جراحه في توتر :

- أديك ما يصلح لتضميد جراحك ؟!

أوماً (مهاب) برأسه إيجاباً ، وهو يشير إلى
سرج جواده ، فالتقط (فارس) تلك اللفافة الجلدية
من سرج الجواد ، وأخرج منها تلك الضمادات ، التي
أعدها (مهاب) مسبقاً ، وهو يغمغم :

- هل كنت مستعداً لهذا ؟!

ابتسم (مهاب) في شحوب ، وهو يقول :

- كل فارس يتوقع إصاباته يا فتى .

تمتم (فارس) ، وهو يضمد جراحه في سرعة :

- من حسن الحظ .

عضَّ (مهاب) شفتيه ، مغمغماً :

- حسن الحظ ؟! لقد خسرنا الكثير من الوقت

يا (فارس) ، وهذا في صالحهم بالتأكيد .

اتعقد حاجباً (فارس) ، وهو يقول :

- لقد قتلنا خمسة منهم .

هزَّ (مهاب) رأسه ، قائلاً :

- هذا لا يهم .. من الواضح أنهم يريدون (فهد)

وما لديه بأى ثمن ، حتى إنهم يضحون بكل شخص

وكل شيء ، في سبيل هذا .

تراجع (فارس) ، مغمغماً :

- ربّاه ! هذا يعنى أن ما لدى (فهد) ثمين للغاية .
أمسك (مهاب) يده فى قوة ، قائلاً :
- وخطير للغاية أيضاً .

ثم جذبه إليه ، مستطرداً فى حزم :
- وهذا يعنى حتمية أن تذهب يا فتى .
قال (فارس) فى سرعة :

- فليكن .. سأضمد جراحك ، و....
قاطعهُ (مهاب) فى صرامة :
- الآن .

تراجع (فارس) فى حدة ، هاتفاً :
- ماذا ؟!

أجابه فى صرامة أكثر :

- أقول الآن يا (فارس) .. لكل دقيقة ثمنها ..
اذهب يا فتى .. اذهب خلفهم ، واتركنى .
صاح (فارس) مستنكراً :
- أتركك ؟! هذا مستحيل !

قبض (مهاب) على ذراعه فى قوة أكبر ، وهو
يقول :

- المستحيل الوحيد ، والعار كل العار ، أن تضيع
(غرناطة) ؛ لأن (مهاب) كان مصاباً ..

ارتفع حاجبا (فارس) فى تأثر ، فتابع (مهاب)
فى حزم صارم :

- لقد ضمدت جراح ظهري ، وأنا ضمدت جرح
الجواد ، ويمكننى تضميد ما تبقى من جراحى ،
والعودة بجوادى وجواد (فهد) إلى (شنتفى) ، أما
أنت ، فعليك أن تكمل المهمة ، وألا تتراجع قط ، مهما
كانت الأسباب .

وكادت أصابعه تنغرس فى ذراع (فارس) ، وهو
يضيف :

- اذهب يا فتى .. اذهب .. هم يريدون (فهد)
ونحن نريده .. ولكل دقيقة ثمنها.

التقت عيونهما بضع لحظات ، تبادلًا خلالها
ما نعجز عنه الكلمات ..

ثم انسحب (فارس) فجأة ، ووثب على متن
جواده ..

وانطلق يسبق الرياح نحو الهدف ..
نحو (قرطبة) .

★ ★ ★

٤- قلب الليل ..

لهثت جياد القشتاليين فى شدة ، مع مغيب
الشمس ، وخيل لـ (فهد) أن قلبه سينخلع من صدره ،
مع شدة خفقاته ، وهو يعدو لساعة كاملة ، مقيداً إلى
أحد الجياد ، وهتف فارس قشتالى فى عصبية :
- الجياد لن يمكنها الاستمرار على هذا النحو .
انعقد حاجبا (هيلموت) ، وهو يمتط شفتيه فى
توتر بالغ ..

إنه يعلم أن الرجل على حق ..
الجياد لن يمكنها الاستمرار على هذا النحو ..
مهما كانت رغبته هو ..
أو قوة احتماله ..

صحيح أنه صار على مسيرة ليلة واحدة من حدود
(قرطبة) ، إلا أن الأمور تحتم التوقف هنا ..
وبإشارة من يده ، توقفت القافلة الصغيرة ، ولم
تكد تفعل ، حتى سقط (فهد) على وجهه وهو يلهث

فى عنف ، فألقى (هيلموت) نظرة عليه ، قائلاً فى
مقت :

- لولا أوامر الملك (فرناندو) ، لتركك تهلك هنا
كالبعير ..

ثم أشار إلى القشتاليين الأربعة ، الذين تبقوا من
فريقه ، وهو يقول بلهجة أمرة :

- فليكن .. سنتوقف هنا .. قيّدوا الزنجى بأغلال
حديدية ، إلى تلك الشجرة هناك ، وسنلتف حولها ،
حتى مشرق الشمس .

لم يكد الفرسان الأربعة يسمعون أوامره ، حتى
هبطوا عن جيادهم ، وتركوها ترعى فى المنطقة ،
وهم يقيدون (فهد) المنهك إلى جذع الشجرة الضخم ،
ثم بدعوا فى إشعال النيران للتدفئة ، و
« لا نيران » ..

نطقها (هيلموت) فى صرامة شديدة ، فالتفتوا
إليه فى استنكار ، وهتف أحدهم فى غضب :
- الليل بارد ، و

قاطعها (هيلموت) فى صرامة :
- قلت : لا نيران .. النيران يمكن رؤيتها من ألف
ألف ذراع .



هبطوا عن جيادهم ، وتركوها ترعى فى المنطقة ، وهم يقيدون
(فهد) المنهك إلى جذع الشجرة الضخم ..

قال فارس آخر فى عصبية :

- وماذا فى هذا .. ما من معسكر بلا نيران ؟!

أجابه (هيلموت) فى حدة :

- هذا المعسكر استثناء .

قال قشتالى ثالث :

- النيران ليست ..

قائله (هيلموت) ، بلهجة قاسية صارمة :

- قلت : لا نيران .. هذا أمر .

قالها ، واستدار يتطلع إلى الأفق ، فى قلق واضح ،

فقال قشتالى رابع فى حدة :

- ما الذى تخشاه بالضبط أيها الجرمانى ؟! لقد

تركنا خلفنا خمسة من أفضل فرساننا ، لمواجهة اثنين

من الأندلسيين فحسب ، والمفترض أنهم قد مزقوهما

إربا الآن .

أشار (هيلموت) بيده ، قائلاً فى صرامة :

- من المفترض .. وليس من المحتم .

تبادل القشتاليون الأربعة نظرات حائرة ، قبل أن

يسأل أحدهم :

- هل تعتقد أن

قاطعه الألمانى فى حزم :

- لا بد أن نفترض هذا .

تبادل الفرسان نظرة أخرى ، قبل أن يبتسم أحدهم ،

قائلاً :

- وحتى لو افترضنا أن الأندلسيين قد نجوا من

فرساننا الخمسة ، وهو احتمال ضئيل وغير منطقي ،

وأنهم سينقضون علينا فى قلب الليل ، لاستعادة هذا

الزنجى القبيح ، فكيف يمكننا أن نواجههم بعضلات

خدرها البارد ، وأنفاس أرهقتها رطوبة الليل .

وقال آخر فى حزم :

- إننا نحتاج إلى إشعال النيران حتماً أيها الـ

القائد .

انعقد حاجبا (هيلموت) فى توتر بالغ الشدة هذه

المررة ..

لقد كان الرجال على حق تماماً فيما يقولون ..

النيران ضرورة فى ليل (الأندلس) ..

لا يمكن للرجال أن يقاتلوا ، ضد أى هجوم محتمل ،

لو أنهم قضوا ليلة باردة ..

وفى الوقت نفسه ، فالنيران تكفى لتحديد موقعهم ..

وبمنتهى الدقة ..

ثم إنه أصدر أمراً بعدم إشعال النيران ..

والتراجع فى الأمر سيفسد صورته وهيبته كقائد ..

لا بد إذن من وجود حل آخر ..

حل يشعل النيران ..

ويحفظ له هيبة ، فى الوقت ذاته ..

وفى حزم ، قال (هيلموت) :

- فليكن .. يمكننا أن نستغل النيران خير استغلال.

سأله الرجال فى لهفة :

- وكيف ؟!

أشار إلى الشجرة ، التى قيّدوا إليها (فهد) ، وهو

يجيب :

- سنشعل النار هناك ، بحيث يبدو ذلك الرجل

واضحاً على وهجها ، ثم سينام اثنان منكم إلى جوار

النار ، ونضع ما يوحى بنوم ثلاثة آخرين إلى

جواره ، فى حين سيختفى اثنان آخران خلف جذع

الشجرة الضخم ، وعندما سيتوسط القمر السماء ،

تتبادلون المواقع ، وهكذا ينعم كل منكم بالدفء

والنوم لنصف ليلة .

تبادلوا نظرة صامتة ، ثم سأله أحدهم :

- وماذا عنك أيها القائد ؟!

انعقد حاجباه ، وهو يجيب فى حزم :

- لا تشغل نفسك بأمرى .. نفذوا ما قلته فحسب .

وجذب عنان جواده ، لينطلق به مبتعداً ، ويختفى

وسط الليل ، الذى خيم على المنطقة كلها ، فغمغم أحدهم :

- أين ذهب ؟! وماذا سيفعل ؟!

هزّ آخر كتفيه ، قائلاً :

- من يدرى ؟!

ثم اتجه ليشعل النيران ، سستطرداً :

- ولكننى أثق به ، على أية حال .

لحق به رجل آخر ، قائلاً :

- أنت على حق .. إنه قائد قوى بالفعل.

فى نفس اللحظة ، التى نطق فيها عبارته ، كان

(هيلموت) يوقف جواده ، إلى جوار شجرة كبيرة

أخرى ، ثم يثب متعلقاً بها ، بذلك الجلد الذى يميز بنى

جلده ، وتسلقها حتى قممها ، وهناك حشر جسده بين

عصنين قويين ، والنقط سهماً من كنانته ، وهو يغمغم :

- حسن .. إذا ما وصلت إلى هنا ، فستجدنى فى انتظارك ، أيها الأندلسى الأبيض .
نطقها ، ثم لاذ بالصمت ، ودسَّ سهمه فى وتر قوسه ، وجلس ينتظر ..

وينتظر ..

وينتظر ..

ينتظر الفارس ..

فارس (الأندلس) ..

★ ★ ★

تأمَّل الشيخ فى وقار ، أولئك الفرسان الثلاثة ،
الذين تركهم (ابن الأحمر) لحراسته ورعايته ، قبل
أن يسألهم فى رصانة :

- هل تشعرون أن إقامتكم هنا مريحة أيها
الفرسان ؟!

شدَّ أكبرهم قامته أمام الشيخ فى احترام ، وهو
يقول :

- المفترض أن يجعل وجودنا إقامتك أنت مريحة
يا سيِّدى .

ابْتَسَم الشَّيْخُ ، قَائِلًا :

- إِنِّهَا دَارِي يَا وَلَدِي .

ارْتَفَعَ حَاجِبَا فَارِسٍ آخَرٍ ، وَهُوَ يَغْمَغِمُ :

- دَارِكُ ؟!

ثُمَّ تَلَفَّتْ حَوْلَهُ ، مَتَمِّمًا :

- تَقْصِدُ أَنَّهُ مَخِيمُكَ يَا سَيِّدِي .

أَوْمَأَ الشَّيْخُ بِرَأْسِهِ مُوَافِقًا ، وَهُوَ يَقُولُ بِنَفْسِ

الرِّصَانَةِ :

- لَا فَارِقَ يَا وَلَدِي .. لَا فَارِقَ .

كَانَتِ الشَّمْسُ قَدْ اخْتَفَتْ فِي الْأَفْقِ ، فَأَسْرَعَ

الْفَرَسَانِ يُوْقِدُونَ النَّارَ ، وَيَعْدُونَ طَعَامَ الْعِشَاءِ ، وَسَأَلَ

أَحَدَهُمُ الشَّيْخَ فِي اهْتِمَامٍ :

- هَلْ تَفْضُلُ اللَّحْمَ الْمَشْوِيَّ يَا سَيِّدِي ؟!

أَشَارَ الشَّيْخُ بِيَدِهِ نَفْيًا ، وَقَالَ :

- إِنَّنِي اكْتَفَى بِقَلِيلٍ مِنَ اللَّبَنِ الْمَتَخْتَرِ يَا وَلَدِي (*) .

ثُمَّ لَوَّحَ بِيَدِهِ ، وَهُوَ يَتَجَهَّ إِلَى مَا خَلْفَ خِيَمَتِهِ ،

مُسْتَطَرِدًا :

(*) الزَّبَادِي .

- انعموا بوقتكم .

نهض أحدهم في حزم ليتبعه ، ولكنه أشار بيده في حزم ، قائلاً :

- اتركني لوحدي يا ولدي .

تردد الفارس بضع لحظات ، ولكن زميله جذبه ، قائلاً :

- اتركه لنفسه .. إنه لن يبتعد .

واصل الفارس تردده لحظة أخرى ، ثم لم يلبث أن ترك أعصابه تسترخي ، وانضم إلى رفيقيه في مسامرتهم ..

أما الشيخ ، فقد جلس على حجر كبير خلف خيمته ، وترك لأفكاره العنان ..

فالمفترض ، طبقاً لكل المعطيات ، أن يكون (فارس) و (مهاب) قد بلغا (شنتفى) في الصباح الباكر ..

ولكنه لم يتلقَ منهما أية رسائل ..

في المعتاد ، يقوم (مهاب) بإرسال واحدة من الحمام الزاجل برسالة قصيرة ..

إلا أنه لم يفعل هذه المرة ..

فماذا حدث ؟!

ماذا أصابهم جميعاً ؟!

(فهد) لم يعد ..

و (فارس) و (مهاب) لم يرسل شيئاً ..

وهذا يعنى أن ما يشعر به منذ البداية كان صحيحاً .

وما بلغه من أخبار كان حقيقياً ..

القشتاليون أدركوا مدى خطورتهم ..

ومدى ما يمثلونه فى أعماق كل أندلسى ..

وسيسعون حتماً للقضاء عليهم ..

تماماً كما فعلوا مع أمير (قرطبة) ..

والد (فارس) ..

قتلوه ، وحطموا الرمز الكامن فيه ، فافتحت لهم

الأبواب ..

أبواب (قرطبة) ..

إنها وسيلتهم ..

أن ينشروا الفساد ، والعصبية ، والتطرف ..

ويقضوا على الرموز ..

ثم يحصدوا النصر ..

نصر تمنحهم نحن إياه ، دون أن ندري ..

نمنحهم إِيَادَ بفسادنا ..

واستهَارنا ..

وضياع الحق بين أيدينا ..

و

توقفت أفكاره بغتة ، وتجمدت في دماغه ، مع تلك
الحركة الخافتة ، التي نقلها حفيف أوراق الغابة
القريبة ، إلى أذنيه مباشرة..

وقفز الشيخ من مكانه ..

وفي اللحظة نفسها ، انقضَّ عليه الفرسان
القشتاليون الثمانيّة ،، من بين الأشجار ، وسيوفهم
مشهورة في أيديهم..

وقبل حتى أن ترتفع السيوف في وجهه ، أدرك
الشيخ خطة (قشتالة) ..

لقد قرّروا القضاء على الرموز ..

كل الرموز ..

بلا استثناء ..

★ ★ ★

واصل (رفيق) عدوه ، وسط مروج (الأندلس)
الخضراء ، في قلب الليل ، على الرغم من العرق

الغزير ، الذى غمر عنقه وجسده ، وهو يطيع سيده ،
الذى بدا أكثر إرهاقا وشحوبا ، وهو يجذب معرفته ،
هاتفا بصوت لاهث :

- هيا يا (رفيق) .. هيا .. أعلم أننى أطلبك
بما يفوق قدراتك ، ولكن مصير (فهد) بين أيدينا
يا (رفيق) .. بل مصير (غرناطة) كلها ..

أطلق الجواد سهيلاً ضعيفاً ، وكأنما يعلن لسيده
أنه قد بذل بالفعل ما يفوق طاقته بأضعاف وأضعاف ..
وفهم (فارس) الصهيل ..

وعض شفتيه فى مرارة ..
هو أيضاً يشعر بتعب لا مثيل له ..
ولكنه يقاوم ..

ويقاوم ..

من أدراه أن القشتاليين لن يواصلوا انطلاقهم طوال
الليل ..

إنهم لو فعلوا ، فسيبلغون حدودهم ، مع مطلع
الفجر ..

ولا ينبغي أن يسمح بهذا أبداً ..
مهما كان الثمن ..

كان مجهدًا ومرهقًا بشدة ..

ومستعدًا لمواصلة الجهد والإرهاق لما لا نهاية ..

لولا أنه لمح تلك النيران من بعيد ..

لحظتها فقط ، جذب معرفة جواده في قوة ، هاتفاً :

- مهلاً .

توقف الجواد بغتة ، فاختل توازنه ، وسقط مع

شدة إرهابه ، فوثب (فارس) عن متنه ، وتدحرج

فوق الأعشاب لحظة ، قبل أن يهتف بصوت خافت :

- لا تطلق صهيلك يا (رفيق) .. لا تفعلها .

كان (رفيق) قد استعد لإطلاق صهيله بالفعل ،

إلا أنه كتمه بغتة ، وهو ينهض واقفاً ، وكأنما فهم

كل حرف نطق به سيده ، الذي تحرك في سرعة

وخفة ، حتى بلغ مرتفاً ، رقد فوقه يراقب النيران

المشتعلة من بعيد ، قبل أن يغمغم في ارتياح شديد ،

على الرغم من تعبهِ وآلامه :

- إنهم هم .

أطلق جواده الهواء من منخريه في توتر ، وهو

يضرب الأرض بحوافره في ضعف ، فالتفت إليه (

فارس) ، قائلاً :

- اطمئن يا صديقي .. لن نهاجمهم الآن ؛ فالليل
فى أوله ، وسيكون حارسهم يَظُنُّ .. سنتركهم حتى
يتجاوز القمر منتصف السماء .. إنها تكون عندئذ
أشد لحظات النوم .

ثم نهض ، واتجه إلى الجواد ، وربّت على عنقه
مغمماً :

- وهذا يعنى أن أماننا ساعة على الأقل ، ننعم
فيها بالنوم .

قالها ، وقاد جواده إلى أكمة قريبة ، وربّت على
عنقه مرة أخرى ، قائلاً :

- معذرة يا صديقي .. إنها ضرورات القتال .
وفى هدوء ، وكأنما لا يشغلها أى أمر فى الدنيا ،
غرق الفارس وجواده فى نوم عميق ..
عميق للغاية ..

لا أحد منهما يدرى كم مضى عليهما من وقت ،
فى هذا السبات العميق ..

ولكن فجأة ، انتفض جسد (فارس) ..
وهباً جالساً ..

ومع انتفاضته المباغتة ، هزّ (رفيق) رأسه ،
وكاد يطلق صهيلاً خافتاً ..

إلا أنه كتمه في اللحظة الأخيرة ..

وبخفة مدهشة ، وثب إليه (فارس) ، وربّت على عنقه ، هامساً في أذنه بحنان عجيب ، وكأنما يتحدث إلى أخ من بنى البشر :

- أحسنت يا (رفيق) .. أحسنت .

كان قد درب جواده هذا ، وأحسن تدريبه ، منذ حدثته ، وصنع منه ، بمساعدة (مهاب) ، جواد حرب لا يشق له غبار ..

لذا ، فقد أدرك الجواد ، بغريزته وتدريبه أن الأمر متأزم ..

وأن الليل وسكونه سينقلان صهيله لمسافات طويلة ..

لذا ، فقد كتم صهيله ..

وضرب الأرض بحوافره في خفوت ، وكأنما يعلن أنه قد استعاد نشاطه وحيويته ، وعلى أتم استعداد للقتال ..

وابتسم (فارس) ، وهو يرّبّت على عنق جواده ثانية ، مغمماً :

- أعلم يا صديقي .. أعلم .. أنا أيضاً استعدت

نشأطى وحيويتى .. يبدو أن الساعات التى استغرقناها
فى النوم كانت مباركة بحق .

قالها ، ورفع عينيه إلى القمر ، الذى توسط
السماء ، قبل أن يقول :

— انتظرنى أنت هنا يا صديقى .. لا أريد أن
يوقظهم وقع حوافرك فى الليل .. أرهف سمعك
وانتظرنى ، والحق بى عند أول صفير .. هل تفهم
يا (رفيق) ؟! هل تفهمنى ؟!

ضرب الجواد الأرض بحوافره مرة أخرى فى
خفوت ، وراح يهز رأسه ، وينفخ الهواء من
منخريه ، وكأنما يعترض على عدم اشتراكه فى
القتال ، فى حين انسحب (فارس) فى خفة ،
وانطلق على أطراف أصابعه ، نحو تلك النيران ، التى
يتراقص وهجها على جسد (فهد) القوى ، المقيّد
إلى جذع الشجرة الضخم ..

وعلى مسافة عشرة أمتار ، توقف يلقى نظرة أكثر
قرباً ..

للهولة الأولى، بدا له وكأن القشتاليين الأربعة ، الذين
توقفت جيادهم قريباً ، قد استغرقوا فى نوم عميق ..

ولكن هذا لم يخدعه ..

فمنطقيًا ، من المستحيل أن يلوذ الأربعة بالنوم ،
دون أن يتركوا أحدهم لتولى أمر حراسة الباقين ..
وهذا يعنى أنه هناك خدعة ما فى الأمر ..
لذا ، فقد أرهف سمعه ، وشخص ببصره إلى أحد
ما يمكنه ..

هناك أربعة أجساد نائمة بالفعل ..
اثنان منهم فقط ، يرتفع صدراهما وينخفضان ، مع
تردد أنفاسهما فى صدريهما ..
أما الآخران ، فهما جامدان تمامًا ..
لا أطراف تتحرك ..
أو أنفاسًا تتردد فى الصدور ..
هو كمين إذن ..
خدعة لاجتذابه ..
وقته ..

ولكن هناك جياذ أربعة بالفعل ..
وهذا يعنى أن فارسين آخرين يختفيان ، فى
مكان ما ..
ومرة أخرى ، راح يفحص المكان كله ببصره ..

كان سهلاً ممتداً ، حسبما يرى على ضوء القمر ..
ووهج النار ..

لا توجد سوى ثلاثة أشجار كبيرة ، فى مدى
الرؤية ..

واحدة هى التى قيّدوا إليها (فهد) ..
وثانية على مسافة عشرة أمتار منها ..
وثالثة على مرمى البصر ..

لا يوجد مكان اختباء منطقى إذن ، إلا خلف تلك
الشجرة الأولى ..

وبمنتهى السرعة والخفة والحذر ، أخذ يدور حول
المكان ، ليلبغ تلك الشجرة ..
من الخلف ..

كانت دورة طويلة ، حتى لا تلفت الانتباه ..
وسريعة ، حتى لا تفسد الأمر ..
وفى النهاية ، صار هناك ..

على مسافة خمسة أمتار من الشجرة ..
وهناك ، بدا له الأمر فى وضوح .. كان هناك
قشتاليان ، يختفيان لمراقبة المكان وحراسته ..
وبخفة مدهشة ، درّبه عليها (مهاب) طويلاً ،
وشرح له الشيخ مزاياها كثيراً ، اتجه نحوهما ..

وكانت نظرية الشيخ صحيحة ..

النوم يبلغ ذروة سطوته ، كلما اقترب الفجر ..
فعلى الرغم من أن القشتاليين قد قضوا نصف الليل
نائمين ، إلا أنهما كانا يجلسان فى تهالك واضح ،
وأحدهما يقاوم سقوط رأسه بكل قوته ، وهو يغمغم
لزميله :

— تباً لذلك الجرمانى !! لقد أرهقنا ، حتى إننى
أقاوم النوم بشدة .
تمتم الآخر فى سخط :

— إنه لا يعرف الراحة أو الرحمة .. لست أدرى
لماذا منحه مولانا (فرناندو) شرف قيادة هذه الحملة؟!
مطّ الأول شفّتيه ، مغمغماً :

— الملك (فرناندو) له أسبابه حتماً .
هزّ الآخر كتفّيه ، قائلاً فى خفوت :
— الرجل يبدو خبيراً محنكاً ، وفارساً لا يشق
له غبار ، ولكن ..

التفت إليه الأول ، متسائلاً :

— ولكن ماذا ؟!

تردّد الآخر لحظة ، قبل أن يندفع ، قائلاً فى حنق :

- لا يروق لى أبداً أن يقودنا جرماتى ! هذا يبدو
وكأنه لا يوجد بيننا من يصلح للقيادة ..

قال الأول فى حزم :

- ليست هذه هى الفكرة .. مولانا (فرناندو) كان
يبحث عن دم جديد .. روح جديدة فى القيادة ، لم
يألفها الأندلسيون بعد .

قال الآخر فى اتبهار :

- أتعنى أن مليكنا أراد مباغتتهم بأسلوب قتال لم
يألفوه ؟!

ابتسم الأول ، قائلاً :

- بالضبط .

« هذا لن يصنع فارقاً كبيراً » ..

انطلقت العبارة بالقشتالية ، على مسافة مترين
فحسب منهما ، فانتفض جسداهما ، وهب كلاهما من
مجلسه ، واستل الأول سيفه ..
أو كاد ..

فما إن التفت أصابعه على مقبض السيف ، حتى
قفزت قدم (فارس) تركل أنفه كالقنبلة ، قبل أن يستدير
هذا الأخير ، وينقض على القشتالى الثانى كالصاعقة ..

لم يكن أسلوب القتال اليدوى هذا مألوفاً ، فى تلك
الجيوش ..

أو ذلك الزمن ..

ولكن (مهاب) كان يؤمن بضرورته وحتميته ،
بعدما تعلمه ، على يد فارس شرقى أصفر الوجه ،
فى شرخ شبابه ..

ولقد لقَّنه إياه كما تعلمه ..

بمنتهى الصبر ..

والبراعة ..

ومن المؤكد أن هذا كان الوقت المناسب تماماً
لا استخدامه ..

فقد كان (فارس) يرغب فى إنهاء القتال فى
سرعة ..

وبأقل ضجة ممكنة ..

ودون أن تلتقى السيوف ..

أو يصدر عنها أدنى صليل ..

لذا ، فقد لكم القشتالى الثانى فى أنفه وفكه ،
لكمتين متتاليتين سريعتين ، تفجرتا فى وجه الرجل
مكيسين من البارود الصامت ، قبل أن يرفع قدمه ،

ليضرب الأول في معدته ، ضربة جعلته ينثني على نفسه ، وهو يطلق شهقة مكتومة ، أخرستها قبضة (فارس) بلكمة حاسمة ..

ولم يستغرق ذلك القتال كله سوى برهة واحدة ..
وبعض الشهقات والضربات المكتومة ..
ثم سقط القشتاليان ..
وساد صمت رهيب ..

صمت تجمد (فارس) خلاله تمامًا ، وكأنما تحول في لحظة واحدة ، إلى تمثال من الجص ، وهو يرهف سمعه ويشحذ بصره ؛ للتيقن من أن أحداً من القشتاليين النائمين لم يشعر بما حدث ..

وكان من الواضح أنهما غارقان في نوم بلا قرار ؛ فقد كانت أنفاسهما هادئة منتظمة ، على نحو يندر أن يتمتع به طفل رضيع ..

وفي سرعة وخفة ، جرد (فارس) القشتاليين اللذين هزمهما من أسلحتهما ، ثم قيدهما في إحكام ، قبل أن يدور حول جذع الشجرة في حذر ، هامساً :

- (فهد) .. هل تسمعي ؟!

كان الزنجي العملاق قد التقط أصوات القتال ،

فاتنفض في مكانه ، وشحذ كل حواسه ؛ لمعرفة
ما يحدث خلفه ، لذا فلم يكذب يسمع صوت (فارس) ،
حتى همس :

- سيدي .

هتف (فارس) بصوت خافت ، وهو يزحف نحوه
في سعادة :

- حمداً لله على سلامتك يا صديقي .. لقد عاملك
هؤلاء الأوغاد بأسوأ ما يكون ، ولكنهم لن يظفروا بك .
ثم استل خنجره ، مستطرداً :

- والآن تماسك يا صديقي ، فحل هذه الأغلال
المعدنية ليس بالأمر السهل .
قال (فهد) في خفوت حازم :
- لا تفعل .

بدت الدهشة على وجه (فارس) ، وهو يتراجع ،
قائلاً :

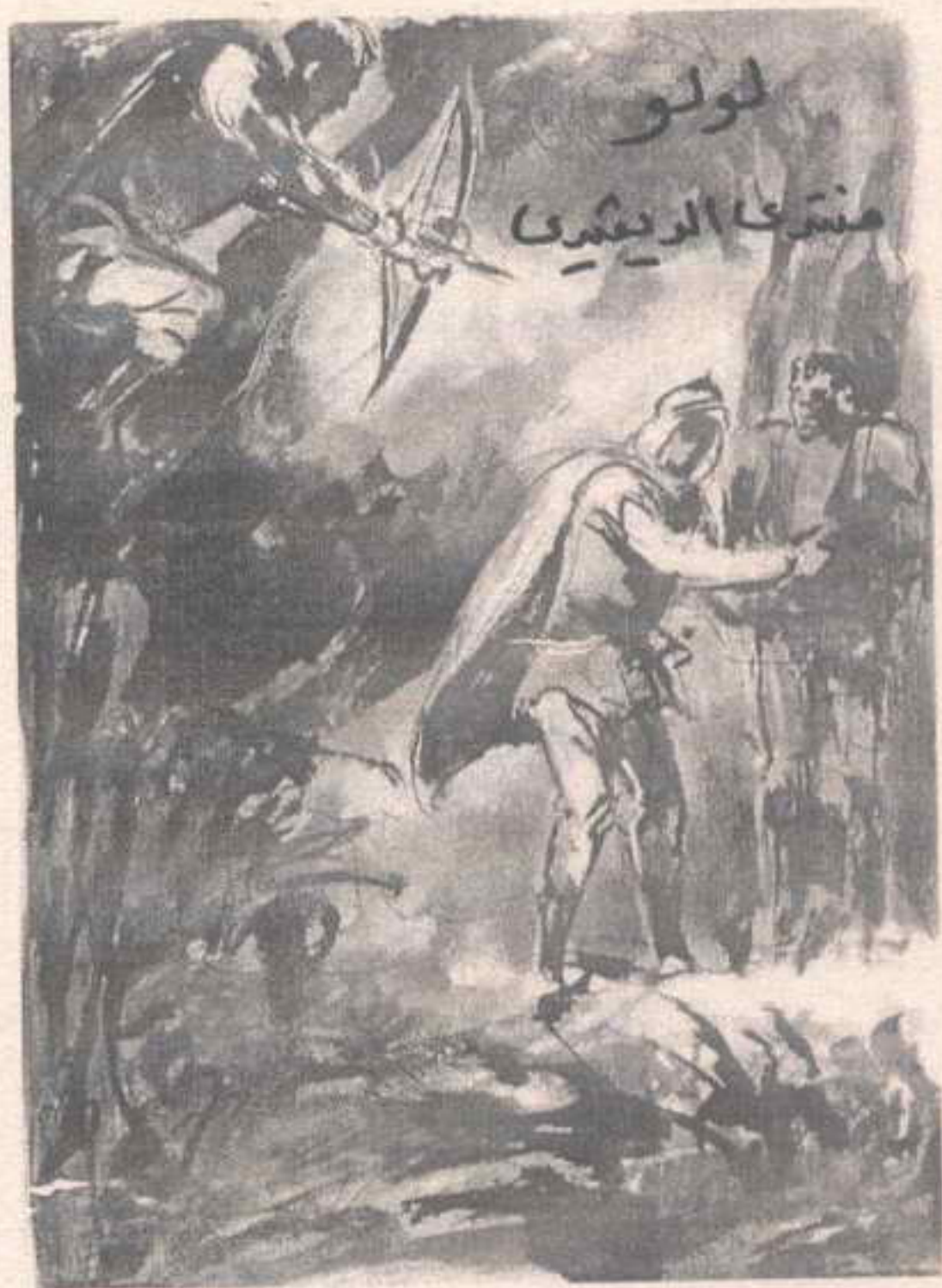
- لا أفعل ؟! ماذا تعني ؟!

كان يعلم أن (فهد) قليل الكلام إلى حد الصمت ،
وأنه إذا ما تحدث ، فهو ينطق أقل الكلمات الممكنة ،
للتعبير عما يريد ..

ولكن فى هذه المرة ، كان (فهد) مقتضياً بشدة ،
وهو يرفع عينيه إلى ما خلف (فارس) ، قائلاً :
- الخامس .

ومع آخر حروف كلماته ، كان (هيلموت) يجذب
وتر قوسه إلى أقصاه ، وهو يغمغم :
- سقطت أيها الفارس الأبيض ..
ثم أفلت الوتر ..
وانطلق السهم ..
نحو (فارس) ، مباشرة .





لولو
هندي الريفي

ومع آخر حروف كلماته ، كان (هيلموت) يجذب وتر قوسه
إلى أقصاه ..

٥- لمحة أندلسية ..

انقضَّ القشتاليون الثمانية كالوحوش المفترسة ،
وارتفعت سيوفهم الضخمة القوية فى شراسة ،
لتهوى على رأس الشيخ الأعزل ، و....

وفجأة ، انطلقت صيحة فرسان (غرناطة) الثلاثة ..
وانقضوا كالعاصفة ..

لا أحد يدرى كيف شعروا ..

وسمعوا ..

وأدركوا ..

ولكن المهم أنهم جاءوا ..

فى الوقت المناسب ..

تماماً ..

واندفعت سيوف ثلاثتهم تذود عن الشيخ ..

بمنتهى القوة ..

وفى تناسق مدهش ، وثب فارسان منهم ، يتلقيان

سيوف القشتاليين على سيفيهما ، فى نفس اللحظة

التي جذب فيها الفارس الثالث الشيخ بعيداً ، وهو
يهتف به :

- احم نفسك يا سيدى .. ابتعد عن هنا .

ثم وثب ينضم إلى زميليه ..

لم يكن القتال متكافئاً في الواقع ، بين ثمانية من
القشتاليين ، وثلاثة من الأندلسيين ، خاصة وقد أرسل
كل طرف أفضل من لديه ..

وما لديه ..

وردت الغابة صليل السيوف ، والأندلسيون الثلاثة
يقاتلون كالأسود ، في حين يلتف القشتاليون الثمانية
حولهم ، لمحاصرتهم ، والنيل منهم .

ومن موقعه ، رأى الشيخ القشتاليين يضربون
ذراع أحد الأندلسيين ، في حين يسقط أندلسي آخر
أحدهم مضرجاً في دمانه ، ورأى السبعة المتبقين وقد
أحاطوا بالأندلسيين تساماً ، وانقضوا عليهم من كل
صوب ، وفرسان (غرناطة) يدافعون عن أنفسهم
بقتال عنيف يائس ، فهتف :

- رباه ! ساعدهم .. ساعد هؤلاء الشجعان .

قالها ، واختطف قطعة من الحطب المشتعل ،
واندفع نحو دائرة القتال ، وهو يصرخ :

- أيها الجبناء .

استدار أحد القشتاليين يواجهه بسيفه ، هاتفاً في
سخرية :

- بقطعة حطب ؟! لقد جننت حقاً أيها الشيخ .

ألقى الشيخ قطعة الحطب المشتعلة ، صانحاً مرة
أخرى :

- أيها الجبناء .

ولكن القشتالي أطاح بها بسيفه بعيداً ، واندفع
نحوه ، صارخاً :

- مت أيها الشيخ المأفون .. مت ..

وبلغ تأزُّم الموقف ذروته ..

الشيخ يواجه سيفاً قوياً ، قاتلاً ..

وفرسان (الأندلس) الثلاثة ، وبينهم فارس مصاب،

يواجهون ستة من القشتاليين الشرسين ، الذين تم

انتقاؤهم بمنتهى الدقة ..

و

« اجمعوا أيها الفرسان » ..

انطلقت الصيحة بصوت جهورى ، حاملة صوتاً

مألوفاً ، وبرزت معها كوكبة من فرسان القصر ،
على رأسهم (ابن الأحمر) نفسه ، وهو يستطرد :
- قاتلوا من أجل (غرناطة) .

تراجع القشتاليون في زعر ، وهتف الشيخ في
لهفة :

- مولاي (ابن الأحمر) .. حمداً لله .. حمداً لله .
وبسرعة البرق ، انقضَّ فرسان (غرناطة) على
القشتاليين ، وأحاطوا بهم ، على نحو قلب كفة
المعركة في لحظة واحدة ، وأجبر فرسان (قرطبة)
على إلقاء سيوفهم ، والأمير يقول في حزم :
- كانت شكوكي إذن على حق .. لقد جاءوا من
أجلك .

ردَّد الشيخ في دهشة :

- شكوك يا مولاي ؟!

هبط الأمير (ابن الأحمر) عن متن جواده ،
وأشار إلى فرساته بالقبض على القشتاليين ، وهو
يقول للشيخ :

- نعم .. شكوكي أيها الوزير .. لقد رصد
جواسيس عبور هؤلاء القشتاليين لحدودنا ، وتبعوهم

لمسافة طويلة في أرضنا ، قبل أن يفقدوا أثرهم ..
وعندما علمت بالأمر ، وبما حدث في (شنتقى) ،
أدركت أن القشتاليين يستهدفونكم .

قال الشيخ في حيرة حذرة :

- معذرة يا مولاي (ابن الأحمر) ، ولكن ما لديك
من معلومات لا يكفي للتوصل إلى استنتاج كهذا .

ابتسم الأمير في خبث ، وهو يقول :

- تقصد أن ما أخبرتك به لا يكفي أيها الوزير .

قال الشيخ ، في حذر أكثر :

- هناك إذن ما لم تخبرني به يا مولاي .

لوح الأمير بكفه ، قائلاً في حزم :

- بالتأكيد .

ثم التفت إلى رجاله ، قائلاً في صرامة :

- قيدوا هؤلاء القشتاليين ، واحملوهم إلى القصر

لاستجوابهم ، وليبق ثلاثة منكم لحراستنا .. هيا .

تابع الشيخ ببصره ما يحدث ، قبل أن يسأل الأمير :

- ماذا يحدث بالضبط يا مولاي !؟

رمقه الأمير بنظرة صارمة صامتة ، قبل أن يجيب

في حزم :

- الكثير أيها الشيخ .. الكثير جداً .

قال الشيخ في توتر :

- المفترض أن يحمل (فهد) أخباراً مهمة من
(قرطبة) .

قال الأمير في حزم :

- من المؤكد أنها مهمة للغاية ، وإلا ما سعوا
خلفه هكذا .

ردّد الشيخ :

- ربّاه ! هل سعوا خلفه ؟!

هزّ الأمير رأسه ، مجيباً :

- الأخبار التي بلغتني من (شنتقى) ليست سارة

على الإطلاق أيها الشيخ ، ولكنني مصرّ على
ألا ينتصر القشتاليون هذه المرة أبداً .

وانعقد حاجباه في شدة ، وهو يكرّر :

- أبداً .

جاء دور الشيخ ، ليتطلّع إليه طويلاً في صمت

حائر متوتر ، قبل أن يقول :

- مولاي .. إنني لم أرك قط بهذا الانفعال .. حتى عندما

كان القشتاليون عند حدودنا ! ماذا هناك بالضبط ؟!

ازداد انعقاد حاجبى الأمير ، وهو يتطلع إليه فى صمت متوتر ، ثم لم يلبث أن أشار بيده ، قائلاً :

- عندما يعود فارسك ، أبلغه أن يأتى مع قائد الفرسان إلى قصرى على الفور .. أخبره أن الأمر مهم وعاجل .. وخطر للغاية !

ردّد الشيخ مبهوراً :

- خطر للغاية يا مولاي ؟

أوماً الأمير برأسه إيجاباً ، وهو يمتطى سهوة جواده ، قائلاً :

- خطر جداً أيها الوزير .

قالها ، وجذب عنان جواده ، ولكزه بركبتيه ، وانطلق عائداً إلى قصره ، يتبعه فارس واحد من فرساته ، فى حين بقى الفارسان الآخران إلى جوار الشيخ ، الذى اتسعت عيناه عن آخرهما ، وهو يتساءل : أى أمر هذا الذى يصفه الأمير بأنه عاجل وخطر للغاية ؟!

أى أمر ؟!

★ ★ ★

١١٣

من المؤكد أن الألماني (هيلموت) فارس لا يشق
له غبار ..

صحيح أن شعبه لم تكن له الباع الطولى ، فى
عالم الفروسية ، ولكنه استطاع أن ينهل منها حتى
ارتوى ..

وعندما صوب (هيلموت) سهمه ، من مسافة
كهذه ، كان يستهدف موضع القلب عند (فارس) ..
وعندما أطلقه ، لم يكن لديه أدنى شك ، فى أنه
سيصيب هدفه ..

ولكن (فهد) رأى السهم يشق الهواء ، متجهاً
نحو (فارس) ..

وبكل قوته ، صرخ :
- أطلق صرخة مباغته ، انتفض لها جسد
(فارس) ، وهتف :
- رباه ! ما الذى ..

وقبل أن يكتمل هتافه ، أصابه السهم ..
واخترق جسده ..

ولكن ليس فى موضع القلب ..
لحسن الحظ والظالع ..

لقد اخترق السهم كتف (فارس) ، ودفعه معه إلى
الأمام ، لينغرس في جذع الشجرة ، الذي ارتطم به
بظننا في عنف ..

وصرخ (فهد) مرة أخرى ..
أطلق صرخة ، حملت كل غضب وألم ومرارة
الدنيا ..

وانقبضت عضلات ذراعيه عن آخرهما ، وهو
يجذب أغلاله المعدنية ، في نفس اللحظة التي هبَّ
فيها القشتاليان النائمان من رقادهما ، واستلا
سيفيهما في توتر مذعور ..

أما (هيلموت) ، فقد أطلق سهمه ، ووثب من
أعلى الشجرة ، إلى متن جواده ، وهو يطلق صيحة
قتالية أخرى ، قبل أن يجذب عنان جواده ، وينطلق
به نحو الشجرة ، التي قيّدوا إليها (فهد) ، والتصق
بها (فارس) ..

وبمنتهى الشراسة ، انقضَّ القشتاليان على
(فارس) ، الذي ألصقه سهم الجرمتاني بجذع
الشجرة ، وأعجزه عن الحركة ..

ومرة أخرى ، صرخ (فهد) ، في غضب عاجز

مرير ؛ لأنه لا يستطيع إنقاذ سيّده ومولاه ، وابن
ربيب نعمته الراحل ، وأمير (قرطبة) الأسطوري ..
أما (فارس) ، فقد أطلق صرخة أخرى ، وهو
يجذب جسده بعيداً عن جذع الشجرة ، فى محاولة
لانتزاع السهم منه ، بعد أن عجزت يداه عن بلوغه ..
ولكن القشتاليين لم يمهلوه ..

لقد هوبا بسيفيهما ، بكل عنفهما وشراستهما ..
وجذب (فارس) نفسه بقوة أكثر ، وهو يثب
بأحدى قدميه ، ليركل سيف أحد القشتاليين ، ثم دارت
فى محاولة لضرب سيف الثانى ..

ولكن السيف انحرف فحسب ، وأصاب فخذَه إصابة
عنيفة ، تفجّرت معها الدماء فى غزارة ..
وتراجع القشتالى ، ليهوى بسيفه ثانية ، فصرخ
(فارس) ، وهو يدفع جسده إلى أعلى ، ثم يخفضه
دفعاً واحدة ..

ومع تلك الحركة المعقّدة ، تحطّم السهم ، تاركاً
مقدمته المغروسة فى جذع الشجرة ، فى حين ظلّ
ما تبقى منه بارزاً من كتف (فارس) من الخلف ..
وفى نفس اللحظة ، هوى القشتالى بسيفه ..

ووثب (فارس) بعيداً ، وهو يستل سيفه ،
ويضرب به فى قوة ، دفاعاً عن حياته ..
وتفجرت الدماء من صدر القشتالى ..
وتدفقت من بين شفتيه ..
وجحظت عيناه عن آخرهما ..

ثم هوى جثة هامدة ، عند قدمى (فارس) ، فى
نفس اللحظة التى وصل فيها الجرمانى ، وأطلق
صيحة قتالية ، وهو ينقض بجواده على (فارس) ،
ويركله بكل قوته ، فى كتفه المصابة ، وهو يهوى
فى ذات الوقت ، بضربة عنيفة من سيفه ، على
سيف بطلنا ، ويطيح به بعيداً ..

وقبل أن يندفع (فارس) لاستعادة سيفه ، وثب
(هيلموت) أمامه حاملاً سلسلة معدنية ، تنتهى بكرة
من الحديد ، وهو يقول فى سخرية :

— أما زلت تصرّ على مواصلة القتال أيها
الأندلسى ؟!

ومع نهاية قوله ، رفع سلاحه الجديد ، وأداره فى
الهواء ، ثم هوى به على كتف (فارس) المصابة ..
وعلى الرغم من الآلام الرهيبة ، وعنف الضربة ،

التي ألقت به مترين كاملين ، لم تنطلق من حلق
(فارس) صرخة واحدة ..

لقد عض شفتيه ليكتم آلامه ، وهو ينهض
مسرعا ، والسهم مازال يبرز من كتفه ..
وفي استهتار ساخر متشف ، اتجه (هيلموت)
نحوه ، قائلا :

- عيبكم أيها الأندلسيون أنكم لا تعترفون قط
بالهزيمة ، وتصرون على مواصلة القتال ، مهما
تعقدت الأمور .. إنني لا أستطيع فهمكم أبدا .
ثم رفع سلاحه ، مضيفا في شراسة :
- إلا كموتى .

هوت الكرة المعدنية ، ولكن (فارس) مال جانبا
بمنتهى الخفة ، على الرغم من إصابته ، ثم اندفع
نحو الألماني ، صائحا :
- وماذا عنا كأحياء !؟

اتسعت عينا الألماني في دهشة وألم ، عندما ارتطم
رأس (فارس) ببطنه ، ودفعه أمامه مترين كاملين ،
قبل أن يسقطا معا ..
وبكل غضبه ، هتف الألماني ، وهو يرفع سلاحه :

- أيها العربي الـ

قاطعه (فارس) ، وهو يمسك معصمه ، ويلويه
فى قوة ، فى نفس اللحظة التى يهوى فيها على فكه
بلكمة كالصاعقة ، هاتفاً :

- دعنى أريك ما نفعله .

أقلت الألمانى سلاحه مرغماً ، فى حين تراجع
(فارس) ، ودار حول نفسه ، ليركله فى صدره ،
مستطرداً :

- مع الأوغاد أمثالك .

كانت الركلة من القوة ، حتى إنها ألقت (هيلموت)
متريين آخرين إلى الخلف ، ليسقط على ظهره فى
عنف ، ثم يهبط واقفاً على قدميه ، ويستل سيفه فى
غضب ، هاتفاً :

- لست أدرى أين تعلمت هذا أيها العربي .

تحرك (فارس) فى سرعة ، محاولاً التقاط سيفه ،
وهو يقول فى صرامة حازمة :

- وربما لن تدرى أبداً أيها الجرمانى .

راه (هيلموت) يندفع نحو السيف ، فانطلق نحوه ،
وهو ينوح بسيفه ، صائحاً فى غضب ثائر :

- لن تنجح أبداً أيها العربى .
وعلى الرغم من آلامه ، والسهم الذى ما زال يبرز
من كتفه ، وثب (فارس) ..
وثب وثبة هائلة مدهشة ، ليختطف سيفه الملقى
وسط العشب ، صائحاً :

- لم تقل : بإذن الله أيها الجرمانى ..
وبسرعة وخفة مبهرتين ، التقط سيفه من
الأرض ، وقفز واقفاً على قدميه ، و
وفجأة ، انطلقت من خلفه صرخة (فهد) ..
صرخة مفعمة بالغضب والحدة والثورة ..
صرخة فارس عاجز مقيد ..
ومع الصرخة ، وعلى نحو غريزى محض ، التفت
(فارس) ..

وقبل حتى أن تكتمل التفاتته ، كان آخر القشتاليين
يهوى على رأسه بهراوة ثقيلة سميكة ..
وارتج رأس (فارس) فى عنف ..
واقبلته الضربة من مكانه اقتلاعاً ..
وألقته أرضاً فى عنف شديد ..
وتفجرت من رأسه الدماء الساخنة ..



وبسرعة وخفه مبهرتين ، التقط سيفه من الأرض

وعندما حاول النهوض ، وثب إليه (هيلموت) ،
وركله فى وجهه بكل قوته ، صائحاً :

- استسلم أيها العربى .. استسلم .

سقط رأس (فارس) مرة ثانية فى عنف ،
وانقض عليه القشتالى بهراوته ، وهو يطلق صرخة
شرسة ، امتزجت بصرخة (فهد) الهادرة ، وهو
يشاهد مولاه يسقط أمام عينيه ، والفارسيين ،
الجرماني والقشتالى ، ينقضان عليه بلا رحمة ..
وبضربة قوية ، أطاح (هيلموت) بسيف (فارس) ،
فى نفس اللحظة التى ضرب فيها القشتالى ذلك
السهم ، البارز من كتفه ، فدفعه فى لحمه أكثر
وأكثر ..

وتفجرت الدماء مرة أخرى ..

وعض (فارس) شفتيه ، كاتماً صرخة ، انطلقت
من حلق (فهد) ، الذى انقبضت كل عضلاته فى
عنف ، مع فرط غضبه وثورته ..

وبلهجة قاسية صارمة ، هتف الجرماني :

- اخرس أيها الزنجى .. اخرس وإلا قطعت لسانك
بلا رحمة .

أطلق (فهد) صرخة غضب عاجزة أخرى ، غير
مبال بتهديد (هيلموت) ، فصاح القشتالى ، وهو
يرفع هراوته بكل قوته :

- أتأبى الصمت .. شاهد رفيقك يلقي مصرعه
أمامك إذن .

قفز (هيلموت) إلى الأمام بغتة ، وأمسك معصم
القشتالى ، وهو يصرخ فى وجهه ، بكل غضب وحدة
الكون :

- ماذا ستفعل أيها التعس ؟!

صاح القشتالى فى عصبية :

- سأقتل ذلك الفارس الأبيض ، الذى أذاقنا الهوان
كثيراً .

صرخ (هيلموت) ، وهو يدفعه بعيداً فى غضب :

- ومن أمرك بهذا ؟!

ثم انعقد حاجباه فى شدة ، وهو يلوح بسيفه ،
مستطرداً :

- إنه لى ..

أطلق (فهد) صرخة أخرى عنيفة ، وهو يقاوم
قيوده فى استماتة ، فرمقه (هيلموت) بنظرة
غاضبة صارمة ، وقال :

- أنت لست غيباً أيها الزنجى ، وهذا يعنى أنك
عنيد للغاية ..

ورفع سيفه ، مضيقاً فى شراسة :
- وسيدفع مولاك ثمن عنادك هذا ..
وأمام ذلك المشهد ، أطلق (فهد) صرخة أخرى ..
صرخة ردتها سهول (الأندلس) .
كلها .



رفع الملك (فرناندو) وشاحه الحريرى عن رأسه ،
فى خيمة قائد جيوشه ، ولوح بيده ، قائلاً :
- أسرع بكأس من الشراب يا رجل .. التسلّل من
تحت أنف (إيزابيلا) يصيبنى بالظماً ..
أسرع القائد يناوله الكأس ، وهو يقول فى حيرة :
- ولماذا التسلّل يا مولاي ؟!
لم يكذ ينطقها ، حتى أدرك الخطأ الذى ارتكبه .
فاستدرك فى دعر :

- معذرة يا مولاي ، ولكننى أتصور أن هزيمة
الأندلسيين هدف مشترك ، لمولاي (فرناندو)
ومولاتى (إيزابيلا) ، وليس من الـ

قاطعه (فرناندو) فى سخرية :

- وليس من المنطقى أن يخفى أحدهما ما يفعله
عن الآخر .. أليس كذلك !؟

احتقن وجه الرجل ، وهو يغمغم :

- عفوك يا مولاي ، إبنى

قاطعه (فرناندو) بإشارة أخرى من يده ، قبل أن
يلقى كأسه فى جوفه ، ويقول فى سخرية :
- من الواضح أنك لا تدري شيئاً عن حياة القصور
يا هذا .

وصمت لحظة ، انقلبت خلالها سحنته ، وأطلت
فيها من عينيه نظرة ممت مخيفة ، لم تتلاش تماماً ،
وهو يتابع فى قسوة :

- فأتنا ومولاتك (إيزابيلا) نتفق فى الهدف ،
ونختلف فى الأسلوب .

ثم التفت إليه ، مضيقاً فى صرامة :

- هل يمكنك فهم هذا !؟

أوماً الرجل براسه ، مغمغماً :

- بالتأكيد يا مولاي .. بالتأكيد .

ألقي إليه (فرناندو) كأسه ، هاتفاً :

- عظيم .. والآن .. أرني تلك الخرائط .. هيا ..

هتف القائد في حماس :

- أمر مولاي .

ثم اتجه إلى أحد أركان خيمته ، وأزاح التراب عن أرضيته ، ليكشف صندوقاً من المعدن تحته ، راح يزيح عنه المزيد والمزيد من الأتربة ، حتى أمكنه حمله إلى منضدة كبيرة ، ثم التفت إلى الملك ، قائلاً :

- مفتاحك يا مولاي .

ناوله الملك مفتاحاً ، دسّه القائد في أحد رتاجين كبيرين في الصندوق ، ثم دسّ مفتاحه هو في الرتاج الآخر ، قبل أن يدير المفتاحين معاً .

وفي لهفة ، رفع الملك غطاء الصندوق ، ثم التقط واحدة من الخرائط الملفوفة داخله ، وفردها على مائدة أخرى ، وراح يتأملها بضع لحظات ، قبل أن يقول في اهتمام :

- عظيم .. كلها خرائط سليمة .. أليس كذلك ؟!

أجابه قائده في احترام :

- كل شبر منها اختبره جواسيسنا يا مولاي ، حتى ليتمكنك القول إنها أكثر الخرائط دقة ، في عصرنا هذا .

أوما الملك برأسه مستحسناً ، وهو يقول :
- عظيم يا قائد الجيوش .. عظيم .
والتقط كأسه الفارغة ، ملوِّحاً بها ، فأسرع القائد
يملؤها ، في حين برقت عينا الملك ، وهو يقول :
- في هذه الحالة ، يمكننى أن أجزم بأننا سنلقن
هؤلاء العرب أقصى درس ، في حياتهم كلها .
وتراقصت على شفتيه ابتسامة مخيفة ، وهو
يضيف :

- وآخر درس .
قالها ، ورفع كأسه ، هاتفاً :
- نخب (غرناطة) القشتالية .
وجرع كأسه دفعة واحدة ، ثم راح يراجع مع قائد
جيوشه تفاصيل الخطة السرية الجديدة ..
خطة الزحف نحو (غرناطة) بأسلوب جديد ..
وعنيف ..
للغاية ..

★ ★ ★

« أبى .. هل أتى ؟! »
ألقت الأميرة (جميلة) السؤال على والدها ،

وأنفاسها تعلو وتهبط فى انفعال ، فالتفت إليها الأمير
(ابن الأحمر) ، وقال :

- ليس بعد يا بنيتى .. ليس بعد .

اتسعت عيناها فى شئء من الارتياح ، وهى
تهتف ..

- رباه ! هل

قاطعها فى حزم :

- لا تسبقى الأحداث .. إنه لم يعد من مهمته
بعد .. هذا كل ما هناك .

تصاعد الحزن إلى ملامحها ، وهى تلقى جسدها
على أقرب مقعد إليها ، قائلة فى أسى شديد ، ولهجة
نقطر مرارة :

- ولكن الوقت يمضى فى سرعة :

- وافقها الأمير بإيماءة من رأسه ، وهو يقول فى
توتر :

- هذا صحيح .. والقشتاليون يتحركون بنشاط غير
عادى ، ويستعدون لضرب ضربتهم القاصمة .

أمسكت (جميلة) يد والدها ، قائلة بصوت
مرتجف :

- لا ينبغي أن تسمح لهم يا أبى .. لا ينبغي أن
تفعل .

زفر الأمير فى مرارة ، وهو يقول :
- إننى أبذل قصارى جهدى يا بنيتى .
ثم اتجه إلى شرفة قصره ، ورفع عينيه إلى
القمر ، الذى بدأ رحلته نحو النصف الثانى من
السماء ، قائلاً :

- المشكلة أن الأمر ، حتى هذه اللحظة ، ما زال
مجرد سر ، لا يعرفه سواتنا ، والخطر ، كل الخطر ،
أن يؤدى الوقت إلى إفشاء السر ، مما سيسبب حالة
من الفرع لا مثيل لها ، بين عامة الناس .
ارتجفت شفتاها ، وهى تتمتم :

- وأى فرع ؟!

زفر الأمير مرة أخرى ، قبل أن يقول :
- صدقت يا بنيتى .. وأى فرع ؟!
وصمت بضع لحظات ، متطلعاً إلى القمر ، ثم لم
يلبث أن تابع فى توتر بالغ :

- أنا نفسى لم أصدق ما أخبرونى به ، لولا أن
رأيت عينه مما سيحدث بنفسى ، ومنذ تلك اللحظة ،

وأنا أشعر بالسر يجثم على صدرى وأنفاسى ، حتى
ليكاد يزهقها .

هتفت الأميرة (جميلة) فى هلع :

- بعداً للشر عنك يا أبى .

تنهّد ، قائلاً فى مرارة :

- للأسف يا بنيتى .. الشر صار قريباً .. قريباً

جداً .

وعاد يرفع عينيه إلى السماء ، مكماً :

- والأمل الوحيد ، بعد الله (سبحانه وتعالى) ،

هو أن يعود (فارس) .. وأن يتولى المهمة بنفسه .

خفق قلبها مرة أخرى فى عنف ، عندما أتى على

ذكر (فارس) ، وامتلاً عقلها كله بصورة هذا الأخير ،

وانطلق عقلها يهتف فى أعماقها :

- نعم .. الأمل فى أن يتولى (فارس) المهمة

بنفسه ..

هذا لو عاد من مهمته الحالية ..

على قيد الحياة ..

★ ★ ★

لم يكن من الممكن أبداً أن يحدث (فهد) كل هذا ..

لم يكن من الممكن أن يرى (فارس) أمامه ،
تحت رحمة خصم جبار لا يرحم ..
لذا ، فقد تفجرت براكين الدنيا فى عروقه ، التى
انتفخت ..

وانتفخت ..

وانتفخت ..

وانقبضت عضلاته على نحو لم يحدث من قبل ..
قط ..

ومع صرخاته الثائرة الغاضبة ، انقبضت عضلاته
أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

وفى اللحظة التى ارتفع فيها سيف الجرمانى ،
فوق رأس (فارس) ، انطلقت من حلق (فهد)
صرخة رهيبة ..

وانقبضت عضلاته إلى حدها الأقصى ، و
وتحطمت أغلاله بغتة ..

وفى مشهد لا مثيل له ، انقض (فهد) على
الألمانى ، كنمر ثائر جريح ، وهو يطلق صرخة

هادرة ، انتفض لها جسد (هيلموت) ، وهو يتراجع
هاتفاً في ذهول :

- مستحيل !

أما القشتالي ، فقد استل سيفه ، وقفز يواجه
(فهد) ، وهو يضرب بكل قوته ، صائحاً في
غطرسة صارمة :

- توقف أيها الزنجي الحقيير ..

أصابته ذبابة سيفه صدر (فهد) ، وصنعت فيه
جرحاً حاداً طويلاً ، جعل هذا الأخير يطلق صيحة
قتالية غاضبة ، ارتجت لها أشجار المنطقة ، قبل أن
ينقض على القشتالي ، ويمسك يده ، ثم يديرها في
عنف ، جعل القشتالي يصرخ في ألم مذعور ، صرخة
امتدت على نحو مخيف ، و (فهد) يحمله إلى أعلى
بذراعيه ، ثم يلقيه ليدق عنقه بصوت مخيف ..
واستدار يواجه الجرمانى ، الذى لوّح بسيفه ،
هاتفاً :

- لست أدرى كيف فعلتها أيها الزنجي ، ولكن
(هيلموت) ليس بالخصم السهل .

انحنى (فهد) يلتقط سيف القشتالي ، ونظرة

غضب صارخة تطل من عينيه ، فرفع (هيلموت)
سيفه ، مستطردًا فى صرامة :

- كما سترى بنفسك .

ومع آخر حروف كلماته ، أطلق (فهد) صارخة
رهيبة ..

وانقض ..

وبصليل لم تشهدده سهول (غرناطة) قط ، انتقى
السيفان ، وراح الفارسان يتقارعان بعنف شديد ، وكل
منهما يكرّ على صاحبه ويفر ..

ولم تمض دقيقة واحدة ، حتى كان الجرماتى قد
أدرك جيدًا أن خصمه لا يستهان به ..

بل هو أعنف وأقوى خصم واجهه فى حياته ..
لذا ، فقد راح يتراجع ..

ويتراجع ..

ويتراجع ..

ومع تراجع ، انقض (فهد) أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

حتى بلغا تلك الشجرة ، التى كان يختفى عندها
الألمانى ..

وما إن لامس (هيلموت) جذع الشجرة ، حتى
هتف فى ظفر مباغت :

- هذا يكفى أيها الزنجى .

وبوثبة عجيبة ، عبر مترين كاملين ، ثم جذب حبلاً
يتدلى من الشجرة ..

ومع جذبته ، هوت شبكة معدنية أخرى من
الشجرة ..

فوق رأس (فهد) مباشرة ..

وبكل غضبه وثورته ، أطلق الزنجى صرخة قوية ..

وراح يضرب الشبكة بسيفه فى عنف ..

ولكن الجرماتى انقضّ عليه بكل عنفه وشراسته ،

صائحاً :

- خسرت أيها الزنجى .. خسرت .

وهوى سيفه على (فهد) مرة ..

وثانية ..

وثالثة .

وتفجرت الدماء من كتف (فهد) ..

وصدره ..

وفخذيه ..

وفى سرعة مدهشة ، جذب (هيلموت) أطراف
الشبكة ، وأحاطها بحبل قوى ، أداره حول جذع
الشجرة ، وأحكم رباطه فى قوة ، وهو يقول ساخرًا :
- هيا .. انزف كل قطرة من دمك القذر أيها
الزنجى ، حتى تلفظ أنفاسك الأخيرة ..

ثم قهقه ضاحكًا فى تشفٍ شرس ، مضيفًا :
- هذا أفضل من قتلك كالنعاج .

ومن موقعه ، رأى (فارس) (فهد) يقاتل فى
استماتة ، و (هيلموت) يقهقه ساخرًا ، على قيد متر
واحد منه ، فاستنفر قواه ، وراح يزحف متجهًا نحو
سيفه ، وهو يلهث فى تهالك ، متممًا :
- رباه ! لا تسمح له بهذا .. من أجل .. من
أجل ..

سعل فى شدة ، وشعر بآلام مبرحة فى كتفه
ورأسه ، قبل أن يتابع :
- من أجل (غرناطة) ..

لمحه (هيلموت) من بعيد ، فهز رأسه متممًا فى
شئ من الحنق :

- ألا يستسلم هذا العربى قط !؟

زِمَجْر (فهد) فى غضب ، وراح يقاتل بعنف أكثر ،
للتخلص من الشبكة ، فهزَّ (هيلموت) رأسه ، قائلاً :
- كلكم مكابرون .

والتقط نفساً عميقاً ، قبل أن يتابع :

- لذا ، فسيُسدنى أن أقتلكم ، واحداً بعد الآخر .
وأدار عينيه فى مقت رهيب إلى (فارس) - الذى
بلغ سيفه بصعوبة - وهو يضيف فى شراسة ..
- وسأبدأ بفارسكم الأبيض .

زِمَجْر (فهد) فى عنف أكثر ..

ولكن (هيلموت) لم يبال ..

لقد حمل سيفه ، واتجه نحو (فارس) فى هدوء
غاضب عجيب ..

أما (فارس) نفسه ، فقد أمسك سيفه ، وبذل
جهداً خرافياً ، ليقف على قدميه ، فى مواجهة
الجرماتى ، الذى واصل التقدّم نحوه ، قائلاً فى مقت :
- تَباً لكم أيها العرب .. وتَباً لعنادكم السخيف .

تماسك (فارس) ، بكل ما يملك من قوة ، وهو
يمسك سيفه ، و (هيلموت) يتقدّم نحوه أكثر ..

وأكثر ..

وأكثر ..

حتى صار هناك متران فقط يفصلان بينهما ..
ولفترة ما ، ظل كل منهما يتطلع إلى الآخر في
صمت ، قبل أن يمسك (فارس) مقبض سيفه بـكلتا
يديه ، وينعقد حاجباه في صرامة وإصرار ، جعل
(هيلموت) يقول في حدة :

- إذن فأنت ترغب في القتال ..

ثم رفع سيفه ، مستطرذا :

- فليكن أيها العربي .. اتل صلاتك الأخيرة .

قالها ، ورفع سيفه ، وهو يطلق صرخة رهيبية ..
وانقض ..

ومع انقضاضته ، استرجع (فارس) كل ما تعلمه ،
في حياته كلها ..

« أفضل لحظة لمواجهة خصمك ، هي اللحظة التي
يهزمه فيها الغضب » ..

« المهم أن تقوم بالفعل المناسب .. وفي اللحظة
المناسبة .. »

« لا تجعل قوة خصمك ترهيبك .. المهم ليس
القوة ، وإنما حسن التصرف .. »

« حركة واحدة صائبة ، تهزم أقوى الأقوياء .. »

« لا يوجد شخص أعزل ، مادام عقله فى رأسه » ..
كل هذه العبارات قفزت إلى رأس (فارس) ، فى
ثانية واحدة ..

بل فى جزء منها ..
كل هذا ، و (هليموت) ينقض ..
بكل غضبه ، وعنفه ، واندفاعه ..
وفى اللحظة المناسبة تمامًا ، وبينما كان السيف
يهوى على رأسه ، انزلق (فارس) بكل ما تبقى فى
جسده من قوة ..

ومع انزلاقه ، ارتفع نصل سيفه إلى أعلى ..
وضرب الجرمانى الهواء بسيفه ..
واختل توازنه ..
وسقط ..

واتسعت عيناه فى زعر ذاهل مستنكر ، وهو
يصرخ :

- لا .. لا يمكن أن ...

ثم بتر عبارته بشهقة عنيفة ، عندما غاص سيف
(فارس) فى بطنه ، ومزق أحشائه بلا هوادة ،
ليبرز من ظهره ، مع بركان من الدم ..

واتسعت عينا الجرمانى أكثر وأكثر ، وتدفق الدم
من بين شفتيه ، وهو يغمغم :

- فعلتها أيها العربى ..

نطقها ، ثم دفع قبضته فى الأرض ، وجلس على
ركبتيه ، والسيف ما زال يخرق جسده ، وبدا وكأن
الدماء قد تصاعدت إلى عينيهِ ، وهو يضيف :

- ولكننى لن أذهب وحدى ..

وعلى الرغم من كل ما أصابه ..

ومن السيف الذى اخترق جسده ، من بطنه إلى
ظهره ..

ومن الدماء التى تتدفق منه كالسيل ..

رفع الألمانى سيفه مرة أخرى ، صارخاً :

- سنذهب معاً .

كان سيفه يهجم بشج رأس (فارس) ، عندما

التقطت أذنا هذا الأخير صفيراً حاداً رفيعاً ..

ثم انغرس سهم فى جسد الجرمانى ..

بل فى قلبه مباشرة ..

وفى هذه المرة ، جحظت عينا (هيلموت) عن

آخرهما ..

وهوى جثة هامدة ..

وبحركة أخيرة ، أزاح (فارس) رأسه جانباً
وشعر بنصل سيف خصمه يهوى على الأرض ، على
قيد إصبع واحد منه ..

وبكل ما تبقى به من قوة ، أزاح جثة الألمانى عن
صدره ، وهو يقول فى ضعف :
- (فهد) .. أنت بخير ؟!

جاوبته زمجرة (فهد) من بعيد ، وهو يواصل
قّاله ، للتخلص من تلك الشبكة ، فانعقد حاجباً
(فارس) فى توتر ، وأدار بصره إلى حيث انطلق
ذلك السهم ..

ومن وسط الظلام ، برز (فارس) على متن جواد
قوى ، يتبعه جواد أسود كالليل ..
ومع تقدّم الفارس من دائرة النيران ، اتضحت
ملامحه أكثر ، وأكثر ..

وبمزيج من الدهشة والسعادة والفرح ، هتف
(فارس) :

- (مهاب) ؟!

ابتسم قائد الفرسان ، وهو يعيد قوسه إلى كتفه ،
قائلاً :

- لم يكن من الممكن أن أترككما وحدكما .
ومن بعيد ، انطلق صهيل (رفيق) ، وهو يعدو
نحو فارسه ..

واتسعت الصورة أكثر ، لتشمل السهل كله ، وقد
تلون الشفق بألوان الشروق ..
شروق شمس جديدة على مملكة (غرناطة) ..
العربية .



(تمت بحمد الله)

فارس الأندلس

من البطولات العربية

في أخرج فترة للعرب في أسبانيا

الطريق إلى قرطبة

- ما سر الرسالة الغامضة ، التي تلقاها (فهد) في (شنتفى) ؟
- من ذلك الألماني ، الذي قاد خطة اختطاف (فهد) ، وارساله إلى (قرطبة) ؟
- ترى هل يصل (فهد) إلى عاصمة القشتاليين ، أم ينجح (فارس) في إنقاذه ، في (الطريق إلى قرطبة) ؟
- اقرأ التفاصيل المثيرة ، وعش عبق التاريخ مع (فارس الأندلس) ...

سر الأمير

الرواية القادمة

المؤلف



د . نبيل فاروق



الناشر
المؤسسة العربية الحديثة

للتوزيع والنشر والتوزيع
ت ٥٩٠٨٤٤ - ٢٨٦١٩٧ - ٢٨٦٥٥١
فاكس ٢٨٦٧٠٣٥٠

التمن في مصر ٢٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم

